



أحمد عبد الله الدامغ

الجزء الأول



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



ح احمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨١٠،٨ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣

فاكس ٤٨٧١٤٢٧ / ٣٦

الموقع على الأنترنت

www.albabtain-center.com

البريد الألكتروني:

E-mail: info@albabtain-center.com



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

أهدي كتابي هذا إلى أصحاب المؤلَّفات والمراجع التي تمخَّضت قراءتي لها عن عزيمة صادقة على تأليف هذا الكتاب.

فإليهم جميعاً؛ الأحياء منهم والأموات أهدي هذا العمل المتواضع الذي كانوا هم السبب في بروزه بهذه الصورة.

المؤلف

احمد عبد الله الدامغ



سبب اختياري عنوان هذا الكتاب!!

عزيزي القارئ:

لا أخالك إلا مستغرباً لعنوان هذا الكتاب «الأدب المثمّن» وسوف لا يكون لديك غرابة عندما تعرف المقصود به.. ـ وقديماً قيل: ـ «إذا عُرف السبب بَطُل العجب».

والسبب في اختياري لهذا العنوان يرجع إلى أمور كثيرة، منها: أن يكون متفرداً لم يؤلَّف تحته مؤلف أدبي بالشكل الذي تراه بين يديك. ومنها: أن «الأدب المثمّن» يعني واقع الكتاب وجوهر موضوعه. وهذا يعطيني الحق بتسميته بهذا الاسم.

وسوف ترى أنه ـ وأعني بذلك العنوان ـ قد حمَّلني عبئاً ثقيلاً في التأليف تحته لأنني جعلت معناه منهجاً، فالتزمت به وسرت عليه سيراً ستدركه من خلال تصفحك للورقات الأولى من هذا الجزء، وسترى ما عانيته من مشقة من ذلك الالتزام.

.. و«الأدب المثمن» لا يتطلب تأويلاً أو تفسيراً أكثر من أن أقول: إن كلمة «المثمن» تعني أنني اخترت لكل موضوع ثمانية أبيات من الشعر الذي يوافقه. والتزمت بأن تكون الأبيات على قافية واحدة. وصرفت النظر عن توحيد الوزن أو جعلها على بحر واحد من بحور الشعر؛ لأن في ذلك صعوبة بل أمراً غير ممكن.

وبعد هذا التوضيح ألا يحق لي أن أسمّي كتابي هذا «الأدب المثمن»؟.



أما موضوعاته فلم أَتخذ منهجاً معيناً لتبويبها ولا لاختيارها. وإنما حاولت أن تكون متنوعة تنوُّع ثمار البستان وأزهاره.. ثم إني آثرت الاختصار على الإسهاب والتطويل خشية من الملل، وطمعاً في مواصلة القراءة دونما سأم.

والله الموفق.

المؤلف

أحمد عبد الله الدامغ

تـوطـئـة

الحمد لله الذي هدانا، وبعث منّا رسولاً إلى الحق دعانا، وخصّنا بالعلم والمعرفة عمّن سوانا، وأصلّي على سيدنا محمد الهادي إلى طريق الرشاد، والمنذر عن طريق الجهل والزيغ والعناد.

وبعد: فهذا كتابي «الأدب المثمّن» أعرضه بين يديك مؤلفاً لم يسبقني إليه مؤلِّف فيما أعلم؛ من حيث هذه الحيثيات:

١ ـ الالتزام بالاستشهاد بثمانية أبيات على قافية واحدة ربما كانت لأكثر من شاعر.

٢ ـ اختصار المواضيع والتنقل من عنوان إلى آخر بقصد تجديد نشاط القارئ؛ الذي كثيراً ما يسأم إذا رأى أمامه صفحات لا تحدّها نقطة نهاية.

٣ ـ جعل المواضيع متنوعة الأهداف، فهي مزيج من الأخبار، والنوادر، والتراجم، والسير، والتواريخ، والفكاهة، وغير ذلك من الموضوعات التي أرجو أن تنال رضا القارئ.

ولعلّي لا أكون متجاوزاً في إطراء نفسي بنفسي إذا قلت: إنني ما قرأت كتاباً منظماً كتنظيمي لهذا الكتاب، والذي قصدت منه أن يكون خفيف القراءة، كبير الفائدة.

أما الجهد الذي بذلته فيه فهو لا يقل عن جهد أي مؤلف يحاول أن يكون صاحب سبق في طريقة التأليف، لكن الذي يبدد المتاعب هو الأمل في نيل رضا القارئ أولاً والرغبة في أن يكون مرجعاً بعد حين.



ولهذا حرصت على ذكر المراجع التي نقلت منها في متون موضوعاته حتى لا يكون عند القارئ لبس أو شك في نسبة الأشعار أو الأقوال المأثورة إلى أصحابها.

ولا أقول إلا كما قال أبو عبد الله المقري في مقدمة كتاب له سمّاه «عمل من طَبَّ لمن حبَّ»:

هذا كتاب بديع في محاسنه
ضمَّنته كل شيء خلته حسنا

فكل ما فيه إن مرَّ اللبيب به
ولم يشمَّ عبيراً شام منه سنا

فخذه واشدد به كف الضنين وذد
حتى تحصّله عن أجفانك الوسنا

المؤلف
احمد عبد الله الدامغ

ما يضاف إليه اسم الله تعالى!

لقد استولت عليّ الحيرة في أيِّ الموضوعات أجعله على الصفحة الأولى من هذا الجزء، وأوشكت على الانتهاء من الموضوعات التي حددتها لهذا الجزء وأنا لم أرشّح الموضوع الذي يصلح أن يكون على رأس قائمة الفهرست الخاصة بهذا الجزء.. لكنني بعد أن قرأت الباب الأول من كتاب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» والذي خصّصه لما يضاف إليه اسم الله تعالى.. قرَّرت نقل نصّه فقط وجعله من نصيب الصفحة الأولى، والنص هو:

«أهل الله.. بيت الله.. رسول الله.. كتاب الله.. خليل الله.. روح الله.. أرض الله.. أسد الله.. سيف الله.. قوس الله.. رمح الله.. كلب الله.. نار الله.. شمس الله.. ظِلُّ الله.. سعد الله.. ناقة الله.. نهر الله.. خاتم الله.. رحمة الله.. ستر الله.. يد الله.. عمال الله.. سبيل الله.. باب الله.. نور الله.. حرّاس الله.. أمان الله.. ميزان الله.. خالصة الله.. موائد الله.. عين الله.. أمر الله.. طراز الله.. خلافة الله.. لعنة الله.. سجن الله.. بنيان الله.. صبغة الله.. وفد الله.

والثعالبي فيما يظهر لي لم يستقصِ ما أضيف إليه اسم الله، فهناك الكثير لم يأت على ذكره.. كعذاب الله.. ونعم الله.. وعيال الله.. وفضل الله.. وجند الله.. وحزب الله.. وقد أورد الثعالبي استشهادات نثرية وشعرية على كل ما ذكره في النص المتقدم، أدع نقلها هنا للبحث عن استشهاد من الشعر على شيء منها وفقاً لشرطي في تأليف هذا الكتاب، وهو الاستشهاد بثمانية أبيات على قافية واحدة لكل موضوع.

.. وسأقتطف شيئاً من الشواهد على ذلك من نونية العلّامة ابن القيّم رحمه الله والتي يقول في أحد مقاطعها:

فإضافة الأوصاف ثابتة لمن
قامت به كإرادة الرحمن
وإضافة الأعيان ثابتة له
ملكاً وخَلْقاً ما هما سيان
فانظر إلى بيت الإله وعلمه
لما أضيفا كيف يفترقان

وفي معرض رد ابن القيّم على الذين يحاولون هدم قواعد الإسلام والإيمان. يقول رحمه الله:

تبّاً لكم إذ تشتمون زوامل
الإسلام حزب اللّه والقرآن

ويقول موصياً بالوقوف في وجوه الملاحدة:

واجعل كتاب اللّه والسنّة التي
ثبتت سلاحك ثم صح بجنان

ويقول أيضاً:

فاصدع بأمر اللّه لا تخشى الورى
في اللّه واخشاه تفز بأمان

ويأمر رحمه الله بتتبع ما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة، فيقول في ذلك:

واذكر حديثاً في صحيح محمد
ذاك البخاري العظيم الشان
فيه نداء اللّه يوم معادنا
بالصوت يبلغ قاصياً والداني

اسم الله من أربعة حروف في جميع اللغات!!

لقد لاحظ الأستاذ سمير شيخاني في كتاب «حقائق أغرب من الخيال» أن اسم الله يتألّف في جميع اللغات من أربعة أحرف..

وقد لا يطلق المرء العادي الذي ليس له علم بلغات العالم الحكم على ذلك..

ومن ذا الذي يحيط بلغات العالم فيدرك صحة هذه العبارة. وقد حاول سمير شيخاني التدليل على ذلك، وأوردت ثلاثاً وثلاثين لغة كلها يتألف اسم الله فيها من أربعة حروف..

فبالإنكليزية LORD - وبالعبرية Jhvh - وباللاتينية Deus - وبالفرنسية Dieu - وبالأشورية Adot - وبالهولندية Gadt - والألمانية Gott - وبالدنمركية Godh - وبالسويدية Goth - وبالفارسية Soru - وبالعربية Alla - وبالهندية Rama - وبالسنسكريتية Deva - وبالإسبانية Dios - وبالاسكندينافية Ddin - وباليونانية Teos - وبالإغريقية Zeus - وبلغة لفايكنغ Thor - وبالمصرية Amon - وبلغة الأنكا Papa - وبالكلنعانية Adnj - وبالفينيقية Baal - وبالكنعانية Aton - وبالفارسية Lstr - وبالبرتغالية Deus - والآرامية Elah - وباليابانية Kami - وبالهندية Hakk - وباليابانية Shin - وبالهندية Llah - وبالكلدانية Nebo - وبالهندية Ezid - وبالآرية Bram.

فتبارك اسمه وتعالى جدّه ولا إله غيره.. فهو في السماء إله وفي الأرض إله، لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وتوحيده.



والمتتبّعون لتسجيل بعض أعمال وأفعال المعاندين والمنكرين الجاحدين الربوبية لله لم يسجلوا جرأةً من أحد الكفرة على أن يسمي ولده «الله»، وهذا يعني أن الله قد نزّه اسمه فصرفهم عنه كما صرف قلوبهم.

ولقد صنع الأمير الصنعاني قصيدة طويلة اختتم جميع أبياتها بـ«لا إله إلّا الله»، منها قوله:

دواء داء الـذنـوب أجـمـعـهـا
فـي قـولـنـا لا إلـه إلّا الـلّـه

مـا يـجـلـو الـهـمَّ وكـروب سـوى
مـقـالـنـا لا إلـه إلّا الـلّـه

ومنها قوله:

ومـن يـكـن آخـر الـمـقـال لـه
فـي هـذه الـدار لا إلـه إلّا الـلّـه

يـدخـل دار الـسـلام يـوم غـدٍ
بـقـولـه لا إلـه إلّا الـلّـه

ولَـقِّـنـوا مـن إلـى الـممـات غـداً
مـرتـحـلاً لا إلـه إلّا الـلّـه

ومنها قوله:

حـصـن الإلـه الـمـنـيـع لـيـس سـوى
مـقـالـنـا لا إلـه إلّا الـلّـه

يـا رب واخـتـم لـنـا مـقـالـتـنـا
بـقـولـنـا لا إلـه إلّا الـلّـه

واجـعـل خـتـام الـمـقـال عـنـد خـتـا
م الـعـمـر إخـلاص لا إلـه إلّا الـلّـه

مما حدث في الليلة التي ولد فيها الرسول

حدَّث يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام عن أبيه: أنَّ نفراً من قريش، منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وزيد بن عمر بن نفيل العدوي، وعبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه، وقد اتخذوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً، وكانوا يعظّمونه وينحرون له الجزر ثم يأكلون ويشربون الخمر ويعكفون عليه، فدخلوا عليه في الليل فرأوه مكبوباً على وجهه، فأنكروا ذلك فأخذوه فردّوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب انقلاباً عنيفاً فأخذوه فردُّوه إلى حاله، فلم يلبث أن انقلب الثالثة، فلما رأوا ذلك اغتمّوا له وعظّموا ذلك، فقال عثمان بن الحويرث: ما له قد أكثر التنكس؟ إن هذا الأمر قد حدث.. وذلك في الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ، فجعل عثمان يقول:

أيا صنم العيد الذي صف حوله
صناديد وفد من بعيد ومن قرب

تكوَّست مغلوباً فما ذاك؟ قل لنا
أذاك سفيه؟ أم تكوّست للعب

فإن كان من ذنب أتينا فإننا
نبوء بإقرار ونلوي على الذنب

وإن كنت مغلوباً تكوَّست صاغراً
فما أنت في الأوثان بالسيد الرب

ثم أخذ الصنم فردَّه إلى حاله، فلما استوى هتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير يقول:

تـردَّى لـمـولـود أنـارت بـنـوره
جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
وخـرّت لـه الأوثـان طُـراً وأرعـدت
قلوب ملوك الأرض طُراً من الرعب
ونار جميع الفرس باخت وأظلمت
وقد بات شاه الفرس في أعظم الكرب
وصُدت عن الكهان بالغيب جنُّها
فـلا مـخـبـر عـنـهـم بـحـق ولا كـذب

فلمَّا سمعوا ذلك خلصوا نجياً، فقال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض. فقال: أجل.. فقال ورقة: تعلمون والله ما قومكم على دين، وقد أخطأوا المحجة، وتركوا دين إبراهيم ما حجر يطوفون به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر. يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين، فخرجوا يضربون في الأرض ويسألون عن الحنيفية دين إبراهيم.. وأما ورقة فتنصَّر وقرأ الكتب حتى علم علماً. وأما عثمان فصار إلى قيصر وحسنت منزلته عنده.. وأما زياد فأراد الخروج فحبس ثم خرج بعد ذلك فلقي راهباً عالماً بالرقة فأخبره بالذي يطلب، فرجع إلى مكة فثارت عليه لخم فقتلوه.. وأما عبد الله بن جحش فأقام بمكة حتى بُعث النبي ﷺ، ثم خرج إلى أرض الحبشة، فلما صار فيها تنصّر وفارق الإسلام، وكان بها حتى هَلَكَ نصرانياً.

○○○○○

من الهواتف التي هتفت بمولد أو مبعث الرسول

تزخر الكتب التراثية بذكر الهواتف التي هتفت مُخْبِرَةً حيناً بمولد رسول الله ﷺ، وحيناً ببعثته.

ولقد ورد في كتب السير والتاريخ الكثير من الروايات التي تحقِّق في أمر تلك الهواتف التي تهتف بالناس آنذاك.

قال محمد بن إسحاق: حدثني شيخ من الأنصار يقال له: عبد الله بن محمود من آل محمد بن مسلمة، قال: بلغني أن رجالاً من خثعم كانوا يقولون: إنّ مما دعانا إلى الإسلام أنّا كنا قوماً نعبد الأوثان، فبينما نحن ذات يوم عند وثنٍ لنا، إذ أقبل نفر يتقاضون إليه يرجون الفرج من عنده؛ لشيء شجر بينهم، إذ هتف بهم هاتف يقول:

يا أيها الناس ذوو الأرحام
من بين أشياخ إلى غلام

ما أنتم وطائش الأحلام
ومسند الحكم إلى الأصنام

أكلكم في حيرة نيام
أم لا ترون ما الذي أمامي

من ساطع يجلو دجى الظلام
قد لاح للناظر من تهام

ذاك نبيّ سيد الأنام
قد جاء بعد الكفر بالإسلام

أكرمه الرحمن من إمام
ومن رسول صادق الكلام
أعدلُ ذي حكم من الأحكام
يأمر بالصلاة والصيام
والبرّ والصلات للأرحام
ويزجر الناس عن الآثام

وللأبيات بقية..

قال: فلما سمعنا ذاك نفرنا عنه وأتينا النبي ﷺ فأسلمنا.

○○○○○

الرسول في حماية بني هاشم

اجتمعت قريش، فأجمعوا أمرهم على أن لا يجالسوا بني هاشم ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلِّموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة ـ فيها عهود ومواثيق ـ: «أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل، فأمرهم أبو طالب أن يدخلوا شِعْبه فلبثوا فيه ثلاث سنين، واشتدّ عليهم البلاء وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركون طعاماً يدخل مكة، ولا بيعاً إلا بادروا فاشتروه، ومنعوا أن يصل شيء منه إلى بني هاشم، حتى كان يسمع أصوات نسائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، واشتدوا على من أسلم ممن لم يدخل الشِّعب فأوثقوهم، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً.. وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر أن يأتي أحدٌ فِراشه.. وفي ذلك عمل أبو طالب قصيدته اللّامية المشهورة، والتي منها قوله:

ولما رأيت القوم لا ودَّ فيهم
وقد قطعوا كل العُرى والوسائل

وقد صارحونا بالعداوة والأذى
وقد طاوعوا الأمر العدو المزايل

صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة
وأبيض عضب من تراث المقاول



وأحضرت عند البيت رهطي وأسرتي
وأمسكت من أثوابه بالوصائل

أعوذ برب الناس من كل طاعن
علينا بسوءٍ أو مُلحّ بباطل

كذبتم ورب البيت نبزي محمداً
ولمَّا نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نُصَرَّع حوله
ونُذْهَل عن أبنائنا والحلائل

وينهض قوم في الحديد إليكم
نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

○○○○○

علامات النبوة من قبل الوحي

عن عمرو بن سعيد أن أبا طالب قال: كنت بذي المجاز ومعي ابن أخي - يعني النبي ﷺ - فأدركني العطش فقلت: يا ابن أخي قد عطشت، فثني وركه ثم نزل فأهوى بعقبه الأرض فإذا بالماء، فقال: اشرب يا عم، فشربت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول شيء رأى النبي ﷺ من النبوة أن قيل له: استتر، وهو غلام، فما رؤيت عورته من يومئذ.

وقالت بَرّة بنت أبي تجرأة: لما ابتدأه الله تعالى بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فكان يلتفت فلا يرى أحداً.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلِّم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» [أخرجه مسلم].

ولما بلغ ﷺ خمساً وعشرين سنة قال له أبو طالب: أنا رجل لا مال لي، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً فلو عرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، وبلغ خديجة ما قال، فقالت: أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك، فخرج مع غلامها مَيْسَرَةَ حتى قدما بصرى، فنزلا في ظل شجرة، فقال نسطورا الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي. قال لميسرة: أفي عينيه حُمْره؟ قال: نعم لا تفارقه. قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء، ثم باع سلعته فوقع بينه وبين رجل تَلَاحٍّ، فقال له: احلف باللات والعزى، فقال ﷺ: «ما حلفت بهما قط»، وإني لامرؤ أعرض عنهما، فقال الرجل: القول قولك، وكان ميسرة إذا اشتد



الحر يرى مَلَكَيْنِ يُظِلّان النبي ﷺ من الشمس.. ودخل مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في عُليَّة لها فرأته ﷺ وهو على بعير وملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك، فلما دخل ميسرة أخبرته بما رأت، فقال: قد رأيت هذا منذ خرجت من الشام، وأخبرها بما قال الراهب.

وقد عبَّر الشعراء عن هذه الصور، فقال شوقي في الهمزية:

نعم اليتيم بدت مخايلُ فضله
واليتيم رزق بعضه وذكاء

في المهد يُستسقى الحيا برجله
وبقصده تُسْتَدْفع البأساء

بسوى الأمانة في الصبا والصدق لم
يعرفه أهل الصدق والأمناء

ويقول البوصيري في ذكر علامة من علامات النبوة قد بدت وهو ﷺ رَضِيعٌ:

وبدت في رضاعه معجزات
ليس فيها عن العيون جفاء

إذ أبته ليتمه وصفات
قلن ما في اليتم عنا غناء

فأتته من آل سعد فتاة
قد أبتها لفقرها الرضعاء

أرضعته لبانها فسقتها
وبنيها ألبانهن الشاة

أخصب العيش عندها بعد محل
إذ غدا للنبي منها غذاء



ما تحقق من النبوءات وما لم يتحقق بعد..

نشرت جريدة «المسلمون» في عددها ٢٣٣ الصادر بتاريخ ٢٤/ ١٤٠٩/١٢هـ، موضوعاً عن بحث أعده الباحث الهندي محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي، وقد تتبع فيه نبوءات النبي ﷺ في كتب الحديث المتفرقة وجمعها في دراسة واحدة تقدم بها للحصول على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف فمنحته الكلية الماجستير بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى..

وقد جاء في البحث قوله: والنبوءات هي أحاديث الرسول لأخبار الناس عما يقع قبل أن يقع.. وقد صدقت نبوءاته ﷺ حتى الآن، ولا نزال نترقَّب تحقيق بقيتها بمرور الأيام.. فمن نبوءاته التي تحققت نَبُّؤتهُ بمقتل عثمان.. ونشوب خلاف بين علي وعائشة رضي الله عنهما.. وبمحاربة علي للخوارج.. وبظهور الطاعون في الشام.. وبفتح المسلمين للمدائن عاصمة كسرى... وبفتح المسلمين للهند والسند.. ونبوءات كثيرة متعلقة بأصحابه ﷺ، قال الباحث: إنها بلغت ٩٢ نبوءة.

وهناك قسم آخر من النبوءات تتعلق بمن يأتون بعد النبي ﷺ وَصَلَ عددها ٦٧ حديثاً شريفاً، منها: أن المسلمين بعده سيتتبعون اليهود والنصارى في عاداتهم وتقاليهم. قال ﷺ: «لتتبعن سنن من كانوا قبلكم، شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جُحْر ضَبٍّ لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟، قال: «فمن»، ومنها: أن الناس سيسمّون الخمر بغير اسمها، ويشربونها على أنها حلال ما دامت لا تسمّى خمراً. قال عليه الصلاة والسلام: «ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمّونها بغير

اسمها»، وقد حصل هذا، فهناك أسماء كثيرة للخمر الآن.. ومنها: إخباره بانتشار القتل. قال عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج». قالوا: ما الهرج يا رسول الله؟ قال: «القتل.. القتل»، وبالإضافة إلى ذلك فقد أشار الباحث إلى أن هناك نبوءات لم تتحقق؛ لأنه لم يأت أوانها بعد، فغالبها من علامات الساعة وهي ٢٨ نبوءة، منها قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة، حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»، ومنها قوله: «إنها لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات»، وذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوفات، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.. ومن الشعراء الذين تباروا في مدحه عليه الصلاة والسلام؛ الشاعر شريف قاسم؛ حيث يقول في قصيدة طويلة:

وهلّ وجه رسول الله مشرقه
أنواره بالهدى في خير صفوته
فأسلمت أمم عاشت به حقباً
والأرض تمرع من أدواح روضته
وأورقت بالهنا دنيا همُ مننا
بها الأخوة من نعمى مودته
للخير إسلامنا في عالميته
شمس على الخلق تغشاهم ببهجته
فيها يرى المرء أهل الأرض قاطبة
من آمنوا بالهدى هم خير إخوته
ويؤثر المسلم المصداق إخوته
في اللّه أن أملقوا يوماً بنجدته

ويكرم الله أهل الفضل يمنحهم
بالباقيات خلوداً عند جنته

فيها يفوزون بالبشرى ويكلؤهم
رب البرية في فردوس منحته

○ ○ ○ ○ ○

أوصاف النبي الجسمية

لقد ذكر كثير من الصحابة رضوان الله عليهم الشيء الكثير من صفات النبي ﷺ؛ كأنس بن مالك، والربيع بنت معوذ..

أما علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فقد أطال في ذكر وصفه..

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصَّافاً عن حِلْيَة رسول الله ﷺ، فقال: كان فخماً مفخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رَجِلُ الشعر إذا فرقت عقيقته فرقاً وإلا فلا يجاوز شعره أذنيه إذا هو وفّره.. أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ في غير قرن بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، مفلج الأسنان، دقيق المسربة كأنَّ عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادن متماسك، سواء البطن والصدر، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس أنور المُتجَرّد، موصول مما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن هما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، ششن الكفين والقدمين، سائل الأطراف ـ أو قال ـ شائل الأطراف، خمصان الأخمصين، مسبج القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال قلّما يخطو تكفياً ويمشي هوناً ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط في صبب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض، أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظ، يسوق أصحابه ويبدر من لقيه بالسلام..

وزاد عليّ كرّم الله وجهه على ذلك فقال: لم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، وكان في وجهه تدوير أبيض مشرباً، أدعج العينين، أهدب الأشفار، بين كتفيه خاتم النبوة وهو خاتم النبيين.. أما أنس فقال: ما مسستُ حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شَمَمْت ريحاً ولا عَرَقاً قط أطيب من ريح أو عَرَق النبي ﷺ..

ومن هذه الأوصاف اقتبس الشعراء فنظموا في ذلك المطوّلات، ومنهم الشاعر عامر محمد بحيري الذي يقول في ملحمته «أمير الأنبياء»:

وسار محمد بين الأنام
فيا للحسن منه والوسام

جميل الوجه وضّاح المحيا
كأنَّ جبينه بدر التمام

تسيل بوجهه للحسن شمس
فيشرق عند حالكه الظلام

أزج الحاجبين بلا اقتران
جميل المقلتين بلا اقتحام

أشم الأنف أصيد هاشمي
ضليع الثغر أفلج الابتسام

وقد يفتر عن حسن الثنايا
كمن يفترّ عن حب الغمام

أسيل الخد كث الشعر وافٍ
شديد رَبْعةٌ ضخم العظام

يسير تقلقاً سيراً ذريعاً
ويلقى جسمه نحو الأمام

ورقة بن نوفل يبشر النبي ﷺ
بأنه سيكون نبيٌّ ورسول هذه الأمة

ذكر ابن كثير عن الحافظين ـ البيهقي، وأبي نعيم ـ عن عمرو بن شرحبيل أن النبي ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمرٌ»، قالت: مَعَاذَ الله ما كان ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتَصْدُق الحديث، فذكرت ذلك لأبي بكر.. فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ بيده أبو بكر، فقال: انطلق بنا إلى ورقة بن نوفل، قال رسول الله: «من أخبرك»، قال أبو بكر: خديجة، فانطلقا إلى ورقة فقصّا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي: يا محمد يا محمد فأنطلق هارباً في الأرض»، فقال له: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، ثم ائتني فأخبرني.. فلما خلا ناداه: يا محمد قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قل: لا إله إلّا الله. فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر فأنا أشهد إنك الذي بشَّر بك ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولإن أدركني ذلك لأجاهدنَّ معك. فلما توفي قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير؛ لأنه آمن بي وصدَّقني» يعني ورقة.. قال ابن كثير: هذا لفظ البيهقي وهو مرسل وفيه غرابة، وهو كون الفاتحة أول ما نزل، أما ما يدل على إضمار ورقة الإيمان وعقده عليه وتأكده عنده، فذلك ما يستدل عليه من شعره الذي جاء فيه قوله:

أتبكر أم أنت العشية رائح
وفي الصدر من إضمارك الحزن قادح

لفرقة قوم لا أحب فراقهم
كأنك عنهم بعد يومين نازح

وأخبار صدق خُبّرتْ عن محمد
يخبرها عنه إذا غاب ناصح

بأنَّ ابن عبد الله أحمد مرسل
إلى كل من ضمت عليه الأباطح

وظني به أن سوف يبعث صادقاً
كما أرسل العبدان هود وصالح

وموسى وإبراهيم حتى يرى له
بهاء ومنشور من الذكر واضح

ويتبعه حيّاً لؤي وغالب
شبابهم والأشيبون الجحاجح

فإن أبق حتى يدرك الناس دهره
فإني به مستبشر الود فارح

○○○○○

حديث دعموص العرب عن بعث النبي ﷺ

روى سعيد بن جبر: أن العرب كانت تسمي رافع بن عمير من بني تميم دعموص العرب لهدايته وجرأته على السير.. قال: قال رافع: بينما أنا أسير ذات ليلة غلبني النوم فأنخت راحلتي وتوسدت ذراعها ونمت، وقد تعوذت قبل نومي فقلت: أعوذ بعظم هذا الوادي من الجن من أن أوذى أو أهاج، فرأيت في منامي رجلاً شاباً يرصد ناقتي وبيده حربة يريد أن يضعها في نحرها فانتبهت لذلك فزعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً، فقلت: هذا حلم، ثم عدت فغفوت، فرأيت مثل ذلك فانتبهت فإذا ناقتي تضطرب، والتفت فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيت في المنام بيده حربة، ورجل شيخ ممسك بيده يرده عنها وهو يقول:

يا مالك بن مهلهل بن دثار
مهلاً فدىً لك مئزري وإزاري

عن ناقة الإنسي لا تعرض لها
واختر بها ما شئت من أثواري

ولقد بدا لي منك ما لم أحتسب
ألا رعيت قرابتي وذمار ي

تسمو إليه بحرمة مسمومة
تباً لفعلك يا أبا الغفار

لولا الحياء وأنَّ أهلك جيرةً
لَعُلمتَ ما كشفت من أخباري

قال فأجابه الشاب وهو يقول:

أأردت أن تعلو وتخفض ذكرنا
في غير مزرية أبا العيزار
ما كان فيهم سيد فيما مضى
إن الخيار همو بنو الأخيار
فاقصد لقصدك يا معكبر إنما
كان المجير مهلهل بن دثار

قال: فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش، فقال الشيخ للفتى: قم يابن أخت فخذ أيها شئت فداء لناقة جاري الإنسي، فقام الفتى فأخذ منها ثوراً وانصرف، ثم التفت إلى الشيخ فقال: يا هذا إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله فقل: أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي، ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها، قال: قلت له: ومن محمد هذا؟ قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي بعث يوم الاثنين، قلت: أين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل، قال: فركبت راحلتي نحو المدينة، فرآني رسول الله ﷺ فحدثني بحديثي قبل أن أذكر له منه شيئاً، ودعاني إلى الإسلام فأسلمت. قال سعيد بن جبر: وكنا نرى أنه هو الذي أنزل الله فيه: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

○○○○○

تاريخ هجرة الرسول ﷺ

إن الحديث عن سيرة رسول الله ﷺ لا يمل، بل يستزاد من المتحدث عنها؛ لأنها تتجدد بتجدد الحديث عنها ووصفها. . كيف لا وكلها مواقف تهز وجدان المسلم وتذكِّره بما له ﷺ من فضل على أهل كل زمان ومكان. . فهو البشير النذير المبعوث للناس كافة. . دعا الناس إلى عبادة الله وحده. . ووصف لهم طريق الرشاد. . وحذرهم من الضلال والعناد.

والهجرة من مكة إلى المدينة تعد جانباً مهماً من جوانب سيرته ﷺ حيث تخللها معجزات باهرات، سآتي على ذكر شيء منها عند استعراضي لجانب من حياة صديقه ومصدّقه ورفيقه في هجرته أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

والهجرة بمعناها الواسع. . تاريخ أمة ولدت. . ومنطلق دولة عظيمة تأسَّست. . وركيزة حياة استقرت بما استمدته من تعاليم سماوية موحاة إلى صاحبها ﷺ.

ولست هنا بصدد ذكر الأحداث التي واكبت الهجرة بقدر ما أحاول به تحديد زمني الهجرة وخروجه من مكة إلى المدينة، ففي «السيرة الحلبية» لعلي بن برهان الدين الحلبي، إشارة إلى أنه كان خروجه ﷺ إلى الغار يوم الخميس، وأنه مكث هو وصاحبه فيه حتى صبيحة يوم الأحد. . والمسافة تقدر بين مكة والمدينة بمسيرة ثلاثة أيام تقريباً.

وفي بعض السِّير أن الرسول ﷺ وصل المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وهناك خلاف في زمن وصوله ﷺ المدينة، فمن قائل أنه وصلها ليلاً وبقي خارجها حتى الصباح، ومِنْ قَائِلٍ وصلها نهاراً.



قال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه ﷺ كان يوم الاثنين، ودخوله المدينة يوم الاثنين.. ولا تكاد توصف فرحة أهل المدينة بقدومه ﷺ سالماً.

شعراً:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة
يذكر لو يلقى حبيباً مواتيا

ويعرض في أهل المواسم نفسه
فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا

فلما أتانا واستقرت به النوى
وأصبح مسروراً بطيبة راضيا

وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم
بعيدٍ ولا يخشى من الناس باغيا

بذلنا له الأموال من حلِّ مالنا
وأنفسنا عند الوغى والتآسيا

نعادي الذي عادى من الناس كلهم
جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا

ونعلم أن الله لا ربّ غيره
وأن كتاب الله أصبح هاديا

وفي المدينة توفي ﷺ.. ولمَّا دفن جاءت ابنته فاطمة فأخذت قبضة من تراب القبر فوضعته على عينها وقالت:

ماذا على من شمّ تربة أحمد
إن لا أشم مدى الزمان غواليا

ο ο ο ο ο

معجزات في طريق الهجرة

عن ابن شهاب الزهري عن عبد الرحمن بن مالك بن جُعْشُم المدلجي عن أبيه مالك بن جُعْشم عن أخيه سراقة بن مالك قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجراً جعلت قريش لمن يرده عليهم مائة من الإبل، قال: فبينما أنا جالس إذ جاء رجل منا، فقال: والله لقد رأيت ركباً ثلاثة، مرّوا عليّ آنفاً إني لأراه محمداً وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني أن اسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان يبغون ضالة لهم. قال: لعله. قال: مكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتي فأمرت بفرسي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأُخْرِجَتْ من وراء حجر، ثم أخذت قِدَاحي لأستقسم بها، ثم انطلقت فلبست لامتي، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج الذي أكره لا يضره. قال: وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة. فركبت في إثره، فبينما فرسي يشتد بي، عثر بي فسقطت عنه. قال: قلت: ما هذا؟، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره. لا يضره. قال: فأبيت إلا أن أتبعه. فركبت في أثره فبينما فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج الذي أكره. لا يضره. قال: فأبيت إلا أن أتبعه. فركبت فلما بدا لي القوم فرأيتهم، وفي رواية: حتى إذا دنوت سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يتلفت، وأبو بكر يلتفت ويكثر الالتفات.. ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخررت عنها. فزجرتها فتمعضت فلم تكد تخرج، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عُثَانُ ساطع من دخان... وعن هذا المشهد يقول سراقة مخاطباً أبا جهل:

أبا حَكَمٍ واللّه لو كنتَ شاهداً
لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه

عجبت ولم تشكك بأن محمداً
نبي وبرهان فمن ذا يكاتمه

عليك يكف القوم عنه فإنني
أرى أن يوماً ما ستبدو معالمه

بأمر يود النصر فيه بالبها
لو أن جميع الناس طُرّاً يسالمه

وفي نهج «البردة»، يذكر الشاعر شوقي طرفاً من أحداث الهجرة وبداية الرحلة والانتقال من مكة إلى المدينة وما حصل للنبي ﷺ وصاحبه أبي بكر من مطاردة من قبل كفار قريش مشيراً إلى المعجزة الإلهية التي أعمت أعين قريش عنهما وهما في الغار. يقول:

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة
لولا مطاردة المختار لم تسم

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا
همس التسابيح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم
كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم
كباطل من جلال الحق منهزم

ooooo

من هي أم معبد.. صاحبة الشاة؟..

لقد استقصى الأستاذ عبد العزيز الرفاعي جزاه الله خيراً البحث عن اسم أم معبد وأودعه في كتيب صغير في حجمه لكنه كبير في فائدته، وقد سمّاه «الرسول كأنك تراه»، وقد خصَّص ورقاته الأخيرة للتعريف بأم معبد صاحبة الحديث المشهور، المتعلّق بالشاة الحائل العجفاء الهزيلة التي مسح ضَرْعَها النبي ﷺ بيده الكريمة، فدرت فاجترت فحلبها ﷺ وسقاها حتى رويت ثم سقى أصحابه، وهم: أبو بكر، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة خادمه، والليثي عبد الله بن الأريقط دليلهما إلى المدينة.

وقد جاءت تلك القصة في أبيات شعر هتف بها هاتف في مكة.. مطلعها:

جزى اللّه رب الناس خير جزائه
رفيقين حلَّا خيمتي أم معبد

فمن هي أم معبد هذه؟. قال صاحب «الإصابة» هي: عاتكة بنت خويلد بن سعد بن منقذ بن ربيعة من أحرم بن خنيس بن حرام بن حبشية بن كعب بن عمرو الخزاعي.. وبهذه السلسلة من النسب تكون كعبية خزاعية.. وقد قيل: إنها أسلمت بعد الحادثة، وأن النبي ﷺ بايعها. وقيل: إنها وفدت إلى المدينة مسلمة. وقد عاشت إلى عام الرمادة، أي إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صحابيةٌ روت شيئاً من الحديث.

أما أبو معبد فهو أكثم بن عبد العزى بن معبد بن ربيعة بن

أصرم بن ضبين. فهو وأم معبد يتصلا في نسب واحد، وقد مات مسلماً قبل وفاة الرسول ﷺ..

وقد ذكر صاحب «الإصابة» أن أبناء أم معبد هم: معبد، ونصرة، وخلدية.

وحول الأبيات التي استهلَّها الهاتف الذي هتف في مكة بالبيت الآنف الذكر وسرد خلالها قصة أم معبد.. يقال: إنه لما سمع حسان بن ثابت رضي الله عنه الهاتف جاوبه بقوله:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم
وقدّس من يسرى إليهم ويغتدى

ترحل عن قوم فضلَّت عقولهم
وحلّ على قوم بنور مجدد

هداهم به بعد الضلالة ربهم
فأرشدهم من يتبع الحق يرشد

وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا
عمى وهداة يهتدون بمهتد

وقد نزلت منهم على أهل يثرب
ركاب هدى حلت عليهم بأسعد

وإن قال في يوم مقالة غائب
فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

نبيٌّ يرى ما لا يرى الناسُ حوله
ويتلو كتاب اللّه في كل مشهد

○○○○○

قصة أم معبد

جزى اللّه رب الناس خير جزائه
رفيقين حلّا خيمتي أم معبد

هذا البيت مطلعٌ لقصيدة سمعها أهل مكة من قائل يقولها بصوت عالٍ ولم يره أحد، وهي تحكي قصة أم معبد وشاتها، والتي ملخصها: أنه لما سار رسول الله ﷺ وصاحباه إلى المدينة مروا بخيمة أم معبد الخزاعية فسألاها.. هل عندها شيء يشترونه؟ قالت: ما عندي شيء، فنظر ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة قد خلفها الجهد والهزال، فقال: «أتأذنين لي أن أحلبها» قالت: نعم، فمسح ضرعها وسمّى الله ودعا، فدرت، فدعا بإناء فحلب فيه حتى علت رغوته فسقاها هي وأصحابه حتى رووا وملأ الإناء.. فما لبث أن جاء زوجها بعنز عجاف، فلما رأى اللبن قال لها: من أين لك هذا، والشاة عازب ولا حلوبة في البيت؟ قالت: مرَّ بنا رجل مبارك. قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه.. صِفِيهِ لي يا أم معبد. قالت: ظاهر الوضاءة أبلج الوجه. حسن الخلق لم تعبه تجلة، ولم تزربه صعلة وسيم قسيم في عينيه دعج. وفي أشفاره وظف. وفي صوته صحل. وفي عنقه سطع. وفي لحيته كثاثة أحور أكحل. أزج أقرن. شديد سواد الشعر. إذا صَمَتَ علاه الوقار. وإذا تكلم علاه البهاء. أجمل الناس وأبهاه من بعيد. وأحسنه وأحلاه من قريب. حلو المنطق. فصل لا نذر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن. ربعه لا تقتحمه عين من قصر. ولا تشنؤه من طول. غض بين غضين. فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً. له رفقاء يحفون به. إذا قال استمعوا لقوله. وإذا أمر تبادروا إلى أمره.

محفود محشود. لا عابس ولا مُفَند.. قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي تطلبه، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.. أما القصيدة التي أشرت إليها فمنها:

همـا نـزلا بـالـبـر وارتـحـلا بـه
فـأفـلـح مـن أمـسـى رفـيـق مـحـمـد

فـيـا لـقـصـي مـا زوى الـلّـه عـنـكـم
بـه مـن فـخـار لا يـحـاذى وسـؤدد

سـلـوا أخـتـكـم عـن شـاتـهـا وإنـائـهـا
فـإنـكـمـوا إن تـسـألـوا الـشـاة تـشـهـد

دعـاهـا بـشـاة حـائـل فـتـحـلـبـت
لـه بـصـريـح ضـرَّة الـشـاة مـزبـد

لـقـد خـاب قـوم زال عـنـهـم نـبـيـهـم
وقُـدِّس مـن يـسـري إلـيـه ويـغـتـدي

وقـد نـزلـت مـنـه عـلـى أهـل يـثـرب
ركـاب هـدى حـلـت عـلـيـهـم بـأسـعـد

نـبـي يـرى مـا لا يـرى الـنـاس حـولـه
ويـتـلـو كـتـاب الـلّـه فـي كـل مـشـهـد

○ ○ ○ ○ ○

الرسول يهدي ويقبل الهدية

يستشهد كثير من الناس عندما يدور الحديث بينهم عن الهدية والتهادي بعض الأحاديث التي كانت تروىٰ عن رسول الله ﷺ، ومنها: «تصافحوا فإنَّ المصافحة تذهب السخيمة، وتهادوا فإن الهدية تذهب الغل». غير أني وجدت صاحب كتاب «تذكرة الموضوعات» العلامة أبي الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي المتوفى سنة ٤٤٨ هجرية، قد أشار إلى أن أحد رواة هذا الحديث لا يحتج به، وهو محمد أبي الزعيزعة.

أما قبول الرسول للهدية فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه «الأوائل» أن أول هدية أهديت إلى الرسول ﷺ بالمدينة، هدية زيد بن ثابت، قصعة مثرودة خبزاً وسمناً ولبناً.. ثم هدية سعد بن عبادة، قصعة ثريد عليها عُراق ـ والعراق عظم عليه لحم، وكذا العَرْقُ بالفتح ـ، وهدية فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي حين أسلم بعث إلى النبي ﷺ بثياب فيها قباء سندس محوص بالذهب، وفرس وحمار بغلة شهباء، فكانت أول شهباء رُئيتْ في المدينة وكانت تسمّى دلدل، وقيل: فضة، وكان فروة عامل من قِبَلِ الروم على عمان من أرض البلقاء. فقسم رسول الله ﷺ الثياب بين نسائه وأعطى منها أبو بكر.. ووهب الفرس لأبي أسيد الساعدي.. وأعطى القباء مخرمة، ومات الحمار عند منصرفه من حجة الوداع، وبلغ ملك الروم صنيع فروة فأراده على الرجوع إلى دينه فأبى، فأمر بصلبه، وفي جفنة أم زيد بن ثابت التي هي من أوائل ما أهدى الرسول ﷺ في المدينة. قال الشاعر الإسلامي أحمد محرم:

يا زيد من صنع الشريد وما عسى
ترجو بما حملت يداك وتأمل

بعتك أمك تبتغي في دينها
ما يبتغي ذو الهمة المتعمل

شكر النبي لها، وأطلق دعوةً
صعد كما شق الفضاء مجلجل

أطيب بتلك هدية يسعى بها
في اللّه ساع بالجلال مظلل

لو أنها وزنت بدنيا قيصر
رجحت وأين من الخضم الجدول

هي إن عييت بوصفها ما يجتنى
من نعمة الإسلام لا ما يؤكل

ما في جهادك أم زيد ريبة
نار الوغى احتدمت وأنت الجحفل

شرع سرابيل الحروف وما اكتسى
من سابغات الخير من يتسربل

○ ○ ○ ○ ○

النبي يمازح زاهراً

عن أنس بن مالك قال: إن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً، وكان يهدي إلى النبي ﷺ هدية من البادية، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج.

فقال النبي ﷺ: «إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه»، وكان ﷺ يحبه.. وكان رجلاً دميماً فأتاه النبي يوماً وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال: من هذا؟ أرسلني، فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه.

فجعل النبي ﷺ يقول: «من يشتري هذا العبد»، فقال: يا رسول الله تجدني كاسداً.

فقال النبي ﷺ: «لكن عند الله لست بكاسد»، أو قال: «أنت عند الله غال». روى الحديث الإمام أحمد في مسنده.

وأخرج أحمد عن أم سلمة أن أبا بكر الصديق خرج تاجراً إلى بصرى ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة رضي الله عنهم أجمعين. وكان سويبط على الزاد فقال له نعيمان: أطعمني، فقال: حتى يجيء أبو بكر. وكان نعيمان مضحاكاً مزاحاً، فذهب إلى ناس جلبوا ظهراً، فقال: ابتعوا مني غلاماً عربياً فارهاً؟ قالوا: نعم. قال: إنه ذو لسان، ولعله يقول: أنا حرّ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوني لا تفسدوه علي!! فقالوا: بل نبتاعه. فابتاعوه منه بعشر قلائص. فأقبل يسوقها، وقال: دونكم هو هذا. فقال سويبط: هو كاذب أنا رجل حرّ. قالوا: قد أخبرنا خبرك. فطرحوا الحبل في رقبته فذهبوا به فجاء أبو بكر فأُخْبِرَ



فذهب هو وأصحابه إليهم فردوا القلائص وأخذوه ثم أخبروا النبي ﷺ، فضحك بذلك هو وأصحابه منها حولاً..

فأي خلق أسمى وأجل من هذا الخلق النبوي الذي يدخل السرور على أصحابه. يقول أبو محمد عبد الله البغدادي مادحاً رسول الله بقصيدة طويلة، منها قوله:

حصرت فلا أدري بأي مديحة
أقوم وأني بالمديح فصيحُ

حليم رحيم محسن متجاوز
فعن كل من يجتبى عليه صفوح

حيّ المحيّا طيب متأرج
فَمِنْ طيبه طيب الوجود يفوح

حفيط على ميثاقه وعهوده
إذا قال قولاً فالمقال صحيح

حريص على إرشادنا لصلاحنا
نذيرٌ لكل العالمين نصيح

حمد مجيد ذو جلال ورفعة
على وجهه نور الجلال يلوح

حلفت يَميناً أنه أفضل الورى
بكل الذي تحوي يداه سموح

حماه حمانا من عذاب إلهنا
فلا ناظر إلا إليه طموح

○○○○○

كعب واحد من الذين شملهم عفو رسول الله

قال ابن إسحاق: لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب يخبره أن رسول الله ﷺ قد قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه. وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعرى، وهبيرة ابن أبي وهب قد هربوا في كل وجه.. فإن كان لك في نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً.. فلما بلغ كعباً هذا الخبر ضاقت عليه الأرض، وأشفق على نفسه، فلما لم يجد من شيء بُدّاً قال قصيدته التي مدح فيها رسول الله ﷺ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ وكان لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟. قال: «نعم»، قال: أنا كعب بن زهير.. ثم قام وألقى قصيدته المشهورة التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيمٌ إثرها لم يُفْدَ مكبول

ومنها:

نُبِّئت أن رسول اللّه أوعدني
والعفو عند رسول اللّه مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم
أذنب، وإن كثرت فيّ الأقاويل



إلى أن قال:

إن الرسول لنور يستضاء به
وصارم من سيوف اللّه مسلول

في فتية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة ـ لما أسلموا ـ زولوا

شم العرانين، أبطال لبوسهم
من نسج داود في الهيجاء سرابيل

لا يقطع الطعن إلا في نحورهم
وما لهم عن حياض الموت تهليل

○ ○ ○ ○ ○

ابن الزبعرى واحد من الذين شملهم عفو رسول الله

لقد حاول المشركون في مجادلاتهم الطعن في القرآن بدعوى التناقض.. ومن صور هذه المجادلة أن الرسول ﷺ لما قرأ على المشركين قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، قال عبد الله الزِّبعرى السهمي وهو من أعظم من تولى المجادلة لرسول الله في شأن الآية السابقة: أهذا خاص بنا ولآلهتنا أم بجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «بل بجميع الأمم»، فقال ابن الزبعرى: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي، وتثني عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما، واليهود يعبدون عزيراً والملائكة يُعْبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم..

وقد ردّ الله تعالى هذا الاعتراض بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾، وعبد الله ابن الزِّبعرى الذي تولى هذه المجادلة كان شاعراً مشهوراً وكان يهاجي المسلمين، ثم هداه الله للإسلام فأسلم وحسن إسلامه، وقد اعتذر عن هجائه عندما قدم رسول الله ﷺ مسلماً بقصيدة، منها قوله:

منع الرقاد بلابل وهموم
والليل معتلج الرواق بهيم

مما أتاني أن أحمد لامني
فيه فبتُّ كأنني محموم



يا خير من حملت على أوصالها
عيرانة سرح اليدين غشوم

إني لمعتذر إليك من الذي
أسديت إذ أنا في الظلام أهيم

أيام تأتيني بأغوى خطة
سهم وتأمرني بها مخزوم

وأمد أسباب الردى ويقودني
أمر الغواة فأمرهم مشؤوم

فاليوم آمن بالنبي محمد
قلبي ومخطئ هذه محروم

فاغفر فدى لك والديَّ كلاهما
زللي فإنك راحم مرحوم

○○○○○

استغاثة النبيّ

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لقد أتيناك وما لنا بعير يبسط ولا صبي يصطبح وأنشد:

أتيناك والعذراء يدْمى لبانها
وقد شغلت أم الصبي عن الطفل

وألقى بكفيه الفتىٰ لاستكانة
من الجوع ضعفاً قائماً وهو لا يُخْلي

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا
سوى الحنظل العامي والعلهز الفَسْل

وليس لنا إلا إليك فرارنا
وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقال رسول الله وهو يجر رداءه حتى صَعِدَ المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم رفع يديه نحو السماء وقال: «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً مريعاً، سريعاً غدقاً، طبقاً عاجلاً غير رائث، نافعاً غير ضار، تملأ به الضروب، وتنبت به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها».. فما ردّ يده إلى نحره حتى ألقت السماء بأورقها وجاء أهل البطانة يصيحون.. يا رسول الله الغرق الغرق.. فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل، فضحك ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: لله در أبي طالب لو كان حياً قَرّتْ عيناه.. من ينشد قوله، فقام علي بن أبي طالب، فقال: يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثَمَالُ اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده من نعمة وفواضل

كذبتم وبيت اللّه يؤي محمد
ولما نقاتل دونه ونناضل

ونسلمه حتى نُصَرّع حوله
ونُذْهل عن أبنائنا والحلائل

○ ○ ○ ○ ○

الذئب يشهد برسالة النبي

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد أن أبا سعيد الخدري قال: عدا ذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه.. فأقعى الذئب على ذنبه، فقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ؟ فقال: يا عجبي ذئب يكلمني كلام الإنس!! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سلف، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ.. فنودي الصلاة جامعة ثم خرج الناس.. فقال للراعي: «أخبرهم» فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره بما أحدث أهله بعده».. قال ابن كثير: وقد صحّحه البيهقي ولم يروه إلا الترمذي من قوله: «والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس...». إلى آخره، عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن القاسم بن الفضل.. ثم قال: وهذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث القاسم، وهو ثقة مأمون عند أهل الحديث.. وثّقه يحيى وابن مهدي.

وروى عن محمد بن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم وأسد في أرض الروم، فانطلق هارباً يلتمس الجيش فإذا هو بالأسد، فقال: يا أبا الحارث إني مولى رسول الله ﷺ، كان من أمري كيت وكيت، فأقبل الأسد يبصبصه حتى قام إلى جنبه كلما سمع صوته أهوى إليه، ثم أقبل يمشي إلى

جنبه فلم يزل كذلك حتى أبلغه الجيش، ثم رجع الأسد عنه. رواه البيهقي.

ولقد أشار إلى ذلك ابن قضيب عبد الله حجازي الحلبي في قصيدة امتدح بها رسول الله عليه الصلاة والسلام، منها قوله:

قد كان يدعى بالنبي ولم يكن
خلق وآدم ليس بالموجود

شهدت ببعثته الوحوش وأقبلت
تترى فمن شاك ومن مصفود

فالظبي وافى موثقاً يشكو الردى
والعود أبدى أنه المجهود

قد صين في الملكوت ذيل ظلاله
كيلا يجر على بساط صعيد

وغدا بأعبا النبوة ناهضاً
والأرض ملء ضغائن وحقود

فنضا لحصد الشرك من غمد الهوى
بيضاً يضئن على الليالي السود

أضحت لبيت الشرك أقوى هادم
ولقصر دين اللّه خير مشيد

بعزيمة تردى الأسود وهمة
يقظى تهد شوامخ الجلمود

○○○○○

الجذع يحنُّ شوقاً إلى الرسول والحجر يسلِّم عليه

روى الإمام أحمد بن حنبل أن النبي ﷺ كان يصلي إلى جذع نخلة، إذ كان المسجد عريشاً، وكان يخطب إلى ذلك الجذع، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هل لك أن نجعل لك منبراً تقوم عليه يوم الجمعة فتسمع الناس خطبتك؟ قال: «نعم»، فصنع له ثلاث درجات هن اللاتي على المنبر، فلما صنع المنبر ووضع موضعه الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ، بدا للنبي ﷺ أن يقوم على ذلك المنبر فيخطب عليه، فمرَّ إليه فلما جاوز ذلك الجذع الذي كان يخطب إليه خار، حتى تصدع وانشق، فنزل ﷺ لما سمع صوت الجذع فمسحه بيده، ثم رجع إلى المنبر، فلما هدم المسجد أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب رضي الله عنه، فكان عنده حتى بلى وأكلته الأرضة وعاد رفاتاً.

وعن تسليم الحجر على رسول الله ﷺ روى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

وروى عن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ جلس في مكان هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان فتناول النبي ﷺ سبع حصيات فسبّحن حتى سمع لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسْن، ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبّحن حتى سمع لهن حَنِيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسْن.. ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر حتى سمع لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن فتناولهن فوضعهن في يد عثمان، فسبّحن حتى سمع لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن..

ولقد وجد الشعراء في هذه المعجزات النبوية مادة ينطلقون منها في صنع المدائح النبوية.. يقول ابن الوردي؛ من قصيدة طويلة يمدح فيها رسول الله ﷺ:

من أين في الثقلين مثل محمدٍ
نرجوه في كرباتنا أن تفرجا

كم للنبي محمدٍ من معجز
أو هي قوى مَنْ عاندوه وأزعجا

عجبي لنطق غزالةٍ للمصطفى
جعل الإله لها بذلك مخرجا

لو لم يُشَقّ البدرُ معجزة له
لانشق منه غيرة وتحرجا

لم لا تحنُّ إليه يا قلبي وقد
غلب الحنين الجذع فيه وهيجا

سبحان من أعطاه تسبيح الحصى
في كفه المروي إذا عطش فجا

أو ليست بيت العنكبوت بآية
في الغار لما ألهمت أن تنسجا

كم ردّ عيناً، كم برأ ذا عاهة
بدعائه كم شدة قد فرجا

○○○○○

أسلم الأعرابي لما نسب الضّبُ النبيَّ

وعن عمر أن أعرابياً صاد ضباً فجعله في كمه، يريد أن يجيء إلى أهله فيذبحه ويشويه ويأكله، فإذا هو بجماعة، فقال: ما هذه الجماعة؟. قالوا: على رجل يذكر أنه نبي، وهو محمد بن عبد الله.. فجاء حتى شق الناس، ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: واللات والعزى، ما سلّمت على ذي مهجة أبغض إليّ منك.. ولولا أن يسميني قومي العجول، لعجلت عليك فقتلتك، فسررت بقتلك الأسود والأبيض وأرحت بني هاشم وغيرهم.. إذ تسبُّ آلهتنا.. فعرفه النبي ﷺ فقال: «يا أخا بني سليم، ما حملك على الذي قلت، ولم تكرمني في مجلسي؟»، قال: وثكلتني اللات والعزى، لا آمنت بك حتى يؤمن بك هذا الضب، فطرح الضب بين يديه.. فقال عمر: ائذن لي أضرب عنقه.. فقال: «أما علمت أن الحليم كاد يكون نبياً!!». ثم أقبل رسول الله ﷺ على الضب فقال له: «يا ضب». قال: لبيك وسعديك؛ بلسان عربي مبين يفهمه القوم جميعاً. فقال له: «يا ضب من تعبد؟»، قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. قال: «فمن أنا؟»، قال رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، قد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك.. قال الأعرابي: لا أبتغي أثراً بعد عين!، أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله بشعري وبشري وسري وعلانيتي.. والله لقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد هو أبغض إليّ منك، ولأنت الآن أحب إليّ من سمعي وبصري ووالدي وولدي، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداك بي».. وفي رواية لابن عباس

أن الضب قال: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ثم أنشأ الضب يقول:

ألا يـا رسـول الـلّـه إنـك صـادق
فـبـوركـت مـهـديـاً وبـوركـت هـاديـاً

شـهـرت لـنـا ديـن الـحـنـيـفـة بـعـدمـا
عـبـدنـا كـأمـثـال الـحـمـيـر الـطـواعـيـا

فـيـا خـيـر مـدعـوٍّ ويـا خـيـر مـرسـل
إلـى الـجـن ثـم الإنـس لـبـيـك داعـيـا

أتـيـت بـبـرهـان مـن الـلّـه واضـحٍ
فـأصـبـحـت فـيـنـا صـادق الـقـول واعـيـا

فـبـوركـت فـي الأحـوال حـيّـاً ومـيـتـاً
وبـوركـت مـولـوداً وبـوركـت نـاشـيـاً

وهذا شاعر أصابه المرض فلم يجد علاجاً شافياً لمرضه إلا الصلاة على النبي ﷺ:

ولـمـا يـئـسـت مـن الـشـكـوى بـمـا بـيـا
وأبـدى الـطـبـيـب الـيـأس مـن عـلاجـيـا

وهـز الأحـبـة رأسـاً شـقـاءً وحـسـرةً
وفـجـرت دمـعـاً أحـرق الـمـآقـيـا

تـذكـرت أن الـلّـه بـأمـر حـثـنـا
صـلاة عـلـيـك صـبـاحـاً وفـي الـلـيـالـيـا

○○○○○

من معجزات محمد
ما يشبه معجزات الرسل والأنبياء من قبله!!

لقد أعطى سيدنا محمد ﷺ معجزات مشابهات لما أعطاه الله لمن سبقه من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فالجبال التي سخرها الله لداود يسبحن معه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾، نجد أن الحصا وهو من مكوِّنات الجبال قد سبّح في كفّ رسول الله ﷺ.

.. وانفلاق الحجر بضربة عصا موسى، شبيه بنبع الماء من بين أصابعه ﷺ، بل هو أعظم، لأن الماء يكمن عادة تحت الحجر وينبع من جراء فلقه، غير أن الحجر الذي ضربه موسى بعصاه كان محمولاً على دابة ولم يكن ثابتاً في الأرض لذا فهي معجزة عظيمة.

والريح التي سخرها الله لسليمان تجري بأمره كما في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ جعلها الله نصرة لرسوله، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «نصرتُ بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» [رواه مسلم].

وإن كان عيسى عليه السلام قد أعطى إحياء الموتى، فإن الجذع قد حَنَّ لرسول الله ﷺ، وهو جامد.

وأعطى محمد ﷺ خمس خصائص ما اختص بها نبي أو رسول قبله، ففي «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر،

وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً؛ فأينما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبُعثت إلى الناس عامة».

وقد ذكر جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف بن منصور بن عمرو الصرصري في قصيدة له طرفاً من هذه الصور المتشابهة من المعجزات النبوية التي اختص الله أنبياءه بها.

منها قوله:

محمد المبعوث للناس رحمةً
يُشيّدُ ما أوهى الضلال ويصلح

لأن سَبّحت صم الجبال مجيبة
لداود أو لان الحديد المصفح

فإن الصخور الصم لانت بكفه
وإن الحصا في كفه ليسبّح

وإن كان موسى أنبع الماء من العصا
فمن كفه قد أصبح الماء يطفح

وإن كانت الريح الرخاء مطيعة
سليمان لا تألو تروح وتسرح

فإنَّ الصبا كانت لنصر نبيّنا
برعب على شهر به الخصم يكلح

وإن أوتي الملك العظيم وسخرت
له الجن تُشفى ما رضيه وتلدح

فإنَّ مفاتيح الكنوز بأسرها
أتته فردّ الزاهدُ المترجّح

يوم الاثنين في حياة الرسول

إن جميع أيام حياة سيد المرسلين وخاتم النبيين كلها بركة وخير على أمته من يوم ولادته حتى يوم وفاته، فما من يوم يأتي وينقضي إلا وقد استزادوا أصحاب رسول الله فيه خيراً من تعليمه ﷺ. . ولحياته ﷺ كما تشير كتب السير، وكما ورد في الأحاديث الشريفة مع بعض الأيام مصادفات. . فله ﷺ مع كل أيام حياته شأن عظيم. . وإذا ما تتبعنا أحداث أيام الأثاني، أو الأثانين إن صح التعبير، وجدنا أن لهذا اليوم خصوصيات من حياة الرسول الكريم، وذلك لحدوث أمور مهمة فيه.

ذكر صاحب «السيرة الحلبية» في المجلد الثاني أشياء عن خاصية يوم الاثنين في سيرة حياة الرسول ﷺ. فقال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ولد نبيّكم يوم الاثنين وحملت به أمه يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين.

قال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه ﷺ كان يوم الاثنين ودخوله المدينة يوم الاثنين، زاد بعضهم: وفتح مكة يوم الاثنين، وَوَضْعُ الركن كان يوم الاثنين.

وقد اختلف في اليوم الذي يسفر عن ليلة الإسراء فقيل: الجمعة، وقيل: السبت. وقال ابن دحية: يكون يوم الاثنين إن شاء الله تعالى ليوافق المولد والمبعث، والهجرة، والوفاة، أي لأن الرسول ﷺ، ولد يوم الاثنين، وبعث يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل يوم الاثنين، ومات يوم الاثنين.

والمسلم يجد في تصفح سيرة حياة النبي ﷺ ترويحاً للنفس



وتوطيناً لها، بل إنه ليجد في كل ما قيل من رثاء ومديح للنبي ﷺ متعة روحية تغمره بحب رسول الله ﷺ، ولهذا حرص الكتّاب والشعراء على اغتنام الحديث عن النبي ﷺ في المناسبات التي تتكرر ذكراها في كل عام؛ كالهجرة والمولد، فممّا قيل في ذكرى مولده ﷺ من أشعار قول الشيخ الحبيب المستاوي من قصيدة له:

من مهبط الوحي مثوى صفوة الرسل
أطل نور الهدى كالصبح. كالأمل

في بطن مكة أنوار قد انبلجت
من نور أحمد في البطحاء والجبل

في البيت. في الكعبة الغراء قبلتنا
في كل وقت وفي الأصباح والآصل

عمت جحافلها كل الدنى فغدت
مثل العروس بدت في أبهج الحلل

الوحش والطير والأملاك قد فرحت
بمولد الحق والإخلاص والعمل

بمولد النور في دنيا قد امتلأت
بكل لون من الإشراك والدجل

بمولد المصطفى خير الورى شرفاً
من ركز الدين بالإقناع والجدل

من أطلق العقل حراً في تأمله
كي يكشف العقل ما يخفى عن المقل

○○○○○

إسلام ابن العضوبة

سادن صنم سمايا

عن عبد الله العماني قال: كان فينا رجل يقال له: مازن بن العضوبة، يسدن صنماً بقرية يقال لها: سمايا من عمان، وكانت تعظمه القبائل.

قال مازن: فعترنا ذات يوم صنم عتيرة - وهي الذبيحة - فسمعت صوتاً من الصنم يقول: يا مازن اسمع تسر، ظَهَرَ خيرٌ وبَطَنَ شرٌّ بعث نبيّ من مضر بدين الله الأكبر، فدع نجيتا من حر سقر..

قال: ففزعت لذلك، ثم عترنا بعد أيام عتيرة أخرى فسمعت من الصنم يقول: أقبل إليّ أقبل، تسمع ما لا تجهل، هذا نبيّ مرسل، جاء بحق منزل، فآمن به كي تعدل عن حر نار تشعل، وقودها بالجندل.

قال مازن: فقلت: إن هذا لعجب وإنه لخير يراد بي، وقدم علينا رجل من أهل الحجاز فقلنا: ما الخبر وراءك؟، قال: ظهر رجل يقال له: محمد، يقول لمن أتاه: «أجيبوا داعي الله»، فقلت: هذا نبأ ما سمعت.. فثرتُ إلى الصنم فكسرته، وركبت راحلتي حتى قدمتُ على رسول الله ﷺ، فشرح لي الإسلام فأسلمت.

.. وعن رجل من خثعم قال: كانت العرب تتحاكم إلى الأصنام فبينا نحن ليلة عند وثن، وقد تقاضينا إليه في شيء قد وقع بيننا أن يفرق بيننا إذ هتف هاتف يقول:

يـا أيـهـا الـنـاس ذو الأحـلام

مـن بـيـن أشـيـاخ إلـى غـلام



ما أنتم وطائش الأحلام
ومسند الحكم إلى الأصنام

أكلكم في حيرة نيام
أم لا ترون ما أرى أمامي

من ساطع يجلو دجى الظلام
قد لاح للناظر من تهام

ذاك نبيّ سيد الأنام
قد جاء بعد الكفر بالإسلام

أكرمه الرحمن من إمام
ومن رسول صادق الكلام

أعدل ذي حكم من الحكام
يأمر بالصلاة والصيام

والبرّ والصّلات للأرحام
ويزجر الناس عن الآثام

فنزعنا وتفرقنا من عنده وصار ذلك الشعر حديثاً.. حتى بلغنا أن النبي ﷺ قد خرج من مكة، ثم قدم المدينة فجئت فأسلمت.

○○○○○

ابن عباس يسأل النبيَّ أين كان وآدم في الجنة

عن ابن عباس قال: قلت: يا رسول الله، أين كنت وآدم في الجنة؟، قال: «كنت في صلبه وأهبط إلى الأرض وأنا في صلبه وركبت السفينة وأنا في صلب نوح، وقذفت في النار وأنا في صلب أبي إبراهيم.. لم يلتق لي أبوان قط على سفاح، لم يزل ينقلني من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام النقية مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما؛ أخذ الله لي بالنبوة مثياقي، وفي التوراة بشَّر بي، وفي الإنجيل شهر اسمي، تشرق الأرض لوجهي، والسماء لرؤيتي».

وقال العباس: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك. فقال ﷺ: «قل لا يغضض الله فاك». فأنشأ يقول:

من قبلها طبتَ في الظلال وفي
مستودع حيث يخصف الورق

ثم هبطتَ البلاد لا بشرٌ أنـ
ـتَ ولا مضغة ولا علقُ

بل نطفة تركب السفين وقد
أُلجم نسْراً وأهله الغرق

ووردت نار الخليل مكتتماً
تجول فيها ولست تحترق

تُنَقلُ من صلب إلى رحم
إذا مضى عالم بدا طبق



حتى احتوى بيتك المهيمنُ مِنْ
خندفٍ علياء تحتها النطق

وأتت لما وردت أشرقت الأر
ض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذاك الضياء وفي النو
ر وسبل الرشاد تخترق

○○○○○

كتاب أمان من النبي إلى جهينة

عن عمرو بن مرة الجهني قال: خرجت حاجاً في جماعة من قومي في الجاهلية فرأيت في المنام وأنا بمكة نوراً ساطعاً خرج من الكعبة، حتى أضاء لي من الكعبة إلى جبل يثرب وأشعر جهينة..

فسمعت صوتاً في النور يقول: انقشعت الظلماء وسطع الضياء وبعث خاتم الأنبياء، ثم ظهر مرة أخرى وسمعت صوتاً في النور يقول: ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، ووصلت الأرحام.. فانتبهت فزعاً فقلت لقومي: والله ليحدثنَّ في هذا الحي من قريش حدث، وأخبرتهم بما رأيت..

فلما انتهينا إلى بلادنا جاءنا الخبر أن رجلاً يقال له: أحمد قد بعث. فخرجت حتى أتيته فأخبرته بما رأيت فقال لي: «يا عمرو بن مرة أنا النبي المرسل إلى العباد كافة أدعوهم إلى الإسلام وآمرهم بحقن الدماء، وصلة الأرحام وعبادة الله، ورفض الأصنام، وحج البيت وصيام رمضان شهر من اثني عشر شهر، فمن أجاب دخل الجنة، ومن عصى فله النار، فآمن بالله يا عمرو بن مرة يؤمنك الله من هول جهنم..

فقلت: يا رسول الله آمنت بكل ما جئت به من حلال وحرام وأن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام.. وكان لنا صنم. وكان أبي سادناً له، فقمت إليه فكسرته ثم لحقت بالنبي ﷺ وقلت له: بأبي أنت وأمي ابعث بي إلى قومي لعل الله عزَّ وجلَّ يَمُنُّ عليهم بي كما منَّ بك عليَّ.. فبعثني إليهم وقال: «عليك بالرفق والقول السديد، ولا تك فظاً ولا متكبراً، ولا حسوداً». فأتيت قومي ودعوتهم بما أمرني به، فأجوبوا إلا

رجلاً منهم قام فقال: يا عمرو بن مرة أَمَرَّ الله عيشك!! تأمرنا أن نرفض آلهتنا ونفرق جماعتنا، ونخالف دين آبائنا إلى ما يدعو إليه هذا القرشي من أهل تهامة، لا حباً ولا كرامة. فقلت له: الكاذب بيني وبينك أمرّ الله عيشه وأبكم لسانه وأكمه أسنانه.

.. قال عمرو: فوالله ما مات حتى سقط فوه، فكان لا يجد طعم الطعام وعَمِيَ وخرس.. فخرج عمرو ومن أسلم من قومه حتى أتوا النبي ﷺ فرحب بهم وحيّاهم، وكتب لهم كتاباً هذه نسخته: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان من الله على لسان رسول الله ﷺ بكتاب صادق وحق ناطق مع عمرو بن مرة الجهني؛ أجهينة بن زيد إن لكم بطون الأرض وظهورها وتلاع الأودية وسهولها، ترعون نباته وتشربون صافيه على أن تقرّوا بالخمس وتصلوا صلاة الخمس، وفي التبيعة والصريمة شاتان إذا اجتمعا، وإن افترقا فشاة شاة ليس على أهل الميرة صدقة، والله يشهد ما بيننا ومن حضر من المسلمين».

وفي ذلك يقول عمرو بن مرة:

ألم ترى أن اللّه أظهر دينه
وبين برهان القرآن لعامر

كتاب من الرحمن نور لجمعنا
وأخلافنا في كل بادٍ وحاضر

إلى خير من يمشي على الأرض كلها
وأفضلها عند اعتكار الضرائر

أطعنا رسول الله لما تقطعت
بطون الأعادي بالظبا والخواصر

فنحن قبيل قد بني المجد حولنا
إذا اجتلبت في الحرب هام الأكابر

بنو الحرب نقريها بأيدٍ طويلة
وبيض تلالأ في أكف المغاور

ترى حوله الأنصار يحمون سِرْبَه
بسمر العوالي والصفاح البواتر

إذا الحرب دارت عند كل عظيمة
ودارت رحاها بالليوث الهواصر

○ ○ ○ ○ ○

من أحداث عام الحديبية

لـمَّا خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية قاصداً مكة، قَدِمَ عليه بِشْر بن سفيان العتكي، فسأل النبي: «هل عندك علم أن أهل مكة علموا بمسيري إليهم؟»، قال بشر: أخبرك أني كنت أطوف بالبيت في ليلة كذا ـ وسمى الليلة التي أمر النبي أصحابه بالمسير فيها إلى مكة ـ إذ صرخ صارخ من أعلى جبل أبي قيس بصوت سمعه جميع أهل مكة يقول:

هبّوا فساحركم منا صحابته
سيروا إليه وكونوا معشراً كرما

شاهت وجوهكم من معشر نكل
لا ينصرون إذا ما حاربوا صنما

فارتجَّت مكة وقام أبو سفيان في جماعة من قريش منهم: عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية بن خلف، وتحالفوا وتعاقدوا أن لا تُدْخَل مكة عليهم في عامهم هذا.

فقال ﷺ: «أما الهاتف الذي سمعته فهو سلفع شيطان الأصنام يوشك أن يقتله الله إن شاء الله، فسر إلى مكة فانظر ما هم فاعلون؟»، قال بشر: فسرت إلى مكة فذكرت القوم بالهاتف وما يؤذن به.. لكنهم قالوا: هذا هبل حركنا لنصرته والمحاماة عليه وما جربنا عليه كذباً قط، وليعلمن محمد أن جاءنا أنها الفيصل فيما بيننا وبينه.. قال بشر: فبينما هم كذلك إذ سمعوا من أعلى الجبل صوتاً يقول:

شاهت وجوه رجال حالفوا صنما
وخاب سعيهم ما أقصر الهمما

ما خير في حجر لا يستجيب لهم
إذا دعوا حوله ولا هم صمما

إني قتلت عدو اللّه سلفعة
شيطان أوثانكم سحقاً لمن ظلما

وقد أتاكم رسول اللّه في نفر
وكلهم محرم لا يسفكون دما

ومما ينسب للعباس بن مرداس من قول في مديح النبي ﷺ، قوله:

رأيتك يا خير البرية كلها
نشرت كتاباً جاء الحق معلما

ونورت البرهان أمراً مدمّساً
وأطفأت بالبرهان ناراً مضرَّما

○ ○ ○ ○ ○

شفاعة النبيّ

إنَّ من كرم الحيِّ القيوم على النبي الهادي الأمين إعطاؤه الشفاعة لأمته.. جاء في صحيح البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلَت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة».

وروي عن جابر أن النبي ﷺ جعل شرطاً لمن تحلّ له الشفاعة بقوله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حَلّتْ له شفاعتي يوم القيامة».

شعراً؛ قال أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن عتيق الغساني الجزائري:

لكل نبيّ دعوة مستجابة
وسيدهم طراً خباها لأمته

إلى يوم لا يغني عن المرء منطق
فصيح ولا يدلي البليغ بحجته

ويوم يفر المرء من ولد له
حبيب ولا يجزى أب بأبوته

ترى الناس فيه بين باك وصارخ
وذاكر ما قد فات من فرط زلته

وكل نبيّ يسأل اللّه نفسه
ويضرب صفحاً عن سؤال لأمته

خلا شافع فينا كريم مشفع
به يشمل اللّه العباد برحمته

ويقول الشيخ الحبيب المستاوي:

يا رسول الإله يومك عيد
فصلاة إليك بالعيد زفت

نرتجي خالص الشفاعة جسراً
إنَّ أقدامنا الضعيفة كلت

○○○○○

ظهور النار التي أخبر بها النبي ﷺ

قال سعيد بن المسيب أخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى»!!.. قال شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل: إن تلك النار ظهرت يوم الجمعة في خامس جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة.. وذكر أن المدينة زلزلت بسببها وأنهم سمعوا أصواتاً مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام، فلم تزل ليلاً ونهاراً حتى ظهرت يوم الجمعة، فانبجست تلك الأرض عند وادي شظا عن نار عظيمة جداً سال الصخر منها حتى بقي مثل الآنك ثم تحول كالفحم الأسود.. وذكر أن ضوءها امتد إلى يتما بحيث كتب الناس على ضوئها في الليل وكأن في بيت كل منهم مصباحاً، ورأى الناس سناها من مكة. وذكر أن الناس في بصرى رأوا صفحات أعناق إبلهم في ضوء هذه النار التي ظهرت في أرض الحجاز. أما أهل المدينة فذكر أنهم لجأوا في تلك الأيام إلى المسجد النبوي وتابوا إلى الله من ذنوب كانوا عليها، واستغفروا عند قبر النبي ﷺ مما سلف منهم، وأعتقوا الغلمان وتصدقوا على فقرائهم ومجاريهم.. قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: وقد قال قائلهم في ذلك ولم يسمّه:

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا
فقد أحاطت بنا يا رب بأساء

نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها
حملاً ونحن بها حقاً أحقاء



زَلازِلٌ تخشع الصّمُ الصلاد لها
وكيف نقوى على الزلزال صَمَّاء

أقام سبعاً يرج الأرض فانصدعت
عن منظر منه عين الشمس عشواء

بحر من النار تجري فوقه سفن
من الهضاب لها في الأرض إرساء

يُرى لها شرر كالقصر طائشة
كأنها ديمة تنصب هطلاء

تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت
رعباً وترعدُ مثل الشهب أضواء

فيا لها آية من معجزات رسو
ل اللّه يعقلها القومُ الألباء

ooooo

الرسول الكريم يبدي أسفه
على قتل النضر بن الحارث

النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي، وهو ابن خالة النبي ﷺ، وقد كان يؤيد أبا سفيان على عداوة النبي ﷺ لكونه كان ثقفياً. كما قال ﷺ: «قريش والأنصار حليفان، وبنو أمية وثقيف حليفان»، وقد كان النضر كثير الأذى للنبي ﷺ ويتكلم فيه بأشياء كثيرة.. ولما كان يوم بدر والتقى فيه المسلمون ومشركو قريش وكان النصر للمسلمين، وأسر جماعة من المشركين بعضهم استفكوا أنفسهم، وبعضهم أمر النبي ﷺ بقتلهم. وكان من جملة المأسورين عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة.. وقد حدّث عاصم بن عمر بن قتادة: أن النبي ﷺ قتل يوم بدر عقبة بن أبي معيط حبراً، وضرب عنق عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري، ثم أقبل من بدر حتى إذا كان بالصفراء قتل النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي أحد بني عبد الدار.. فقالت قتيلة بنت الحارث ترثي أخاها النضر قصيدة منها:

يا راكباً إن الأثيل مظنة
من صبح خامسه وأنت موفق

بلغ به ميتاً فإن تحية
ما إن تزال بها الركائب تخفق

مني إليه وعبرة مسفوحة
حادت بدرتها وأخرى تخنق





فليسمعن النضران ناديته
إن كان يسمع ميت أو ينطق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
لله أرحام هناك تمزق

صبراً يقاد إلى المنية متعباً
رسف المقيد وهو عان موثق

أمحمد ولأنت نسل نجيبة
في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما
مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

وللقصيدة بقية؛ وقد قيل: إن النبي ﷺ قال: «لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته».. وفي شعر قتيلة هذا قيل: هو أكرم شعر موثوره وأعفه وأكفه وأحلمه.

○○○○○

الشعر يدخل رحمة في قلب النبي
يوم فتح مكة بأهل مكة

خرج رسول الله قاصداً فتح مكة في عشرة آلاف فارس لعشر مضين من رمضان سنة ثمان للهجرة وفتحها لعشر بقين منه، وكان ﷺ يقول وهو في طريقه: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها».. وروي عن جابر أن النبي ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سوداء من غير إحرام..

وروي عن عائشة أن لواء رسول الله يوم فتح مكة كان أبيضاً، ورايته سوداء تسمى «العقاب»، وكانت قطعة من مرط مرجل..

وروى البخاري عن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجّع.. وقال: «لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجع».

.. وروى ابن مسعود أن رجلاً كلّم رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فأخذته الرعدة، فقال ﷺ: «هوّن عليك فإنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»..

وعن ابن عمر قال: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح وأتى النساء يلطمن وجوه الخيل، فتبسم إلى أبي بكر وقال: «يا أبا بكر كيف قال حسان؟!»، فأنشد أبو بكر رضي الله عنه قول حسان:

عدمتُ بُنيَّتي إن لم تروها
تثير النقع من كنفي كداء



يــنــازعــن الأعــنــة مــســرجــات
يــلــطــمــهــن بــالــخُــمْــرِ الــنــســاء

فقال رسول الله ﷺ: «ادخلوها من حيث قال حسان».

وروي عن جابر بن عبد الله قال: دفع رسول الله ﷺ الراية يوم فتح مكة إلى سعد بن عبادة فجعل يهزها، ويقول: «اليوم يوم الملحمة يوم تستحل الحرمة»، قال: فشق ذلك على قريش وكبر في نفوسهم.

قال: فعارضت امرأة رسول الله ﷺ في مسيره وأنشأت تقول:

يــا نــبــيّ الــهــدى إلــيــك نــجــاحَــ
ـي قــريــش ولات حــيــن لــجــاء

حــيــن ضــاقــت عــلــيــهــم ســعــة الأر
ض وعــاداهــم آلــهُ الــســمــاء

والــتــقــت حــلــقــتــا الــبــطــان عــلــى الــقــو
م ونــودوا بــالــصَّــيْــلــم الــصــلــعــاء

إن ســعــداً يــريــد قــاصــمــة الــظــهــ
ـر بــأهــل الــحــجــون والــبــطــحــاء

خــزرجــي لــو يــســتــطــيــع مــن الــغــيــ
ـظ رمــانــا بــالــنّــسْــرِ والــعــواء

فــانْــهَــنْــهُ فــإنــه الأســدُ الأســـ
ـودُ والــلــيــث والــغْ فــي الــدمــاء

قال: فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر دخله رحمة لهم ورأفة بهم، وأمر بالراية فأخذت من سعد بن عبادة ودفعت إلى ابنه قيس بن سعد. قال: فيروى أنه عليه الصلاة والسلام أحب أن لا يخيبها إذ رغبت إليه واستغاثت به، وأحب أن لا يُغْضِبَ سعداً فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه.

حجة الوداع

لقد رجح بعض أصحاب السِيَر، ومنهم علي بن برهان الدين الحلبي أن خروج النبي ﷺ لحجة الوداع كان يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وكان خروجه نهاراً بعد صلاة الظهر، وأنه أحرم من ذي الحليفة بعد أن اغتسل في رداء وإزار، ولبّى بقوله: «لبيك لبيك عمرة وحجاً». واختلف في عدد من حج معه، وكان الاختلاف واقعاً فيما بين أربعين ألفاً ومائة وعشرين ألفاً ما بين ماشٍ وراكب.. وقد دخل مكة نهاراً من الثنية العليا التي يقال لها: كداء، وهي التي يقال لها الآن: الحجون، ودخل الحرم من باب عبد مناف وهو باب بني شيبة المعروف الآن بباب السلام.. ولما رأى البيت قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً.. وزد من شرّفه وكرّمه ممن حجّه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً»، ثم بدأ طوافه واستلم الحجر وقد فاضت عيناه بالبكاء.. وطاف وسعى وبقي محرماً؛ لأنه قد ساق هدياً حتى يوم التروية، وهو اليوم الثامن حيث نهض إلى منى حيث أحرم بالحج كل من أحلّ وبات بها، وبعد طلوع الشمس نهض إلى عرفات، ونزل في قبة شعر ضربت له بنمره، ولما زالت الشمس استقل ناقته القصواء، وكانت تسمى أيضاً العضباء والجدعاء.. حتى أتى بطن الوادي فخطب وهو على راحلته خطبته التاريخية التي استشهد الناس على إبلاغهم بها وأشهد الله على تبليغها.. وجاء أنه أمر منادياً صار ينادي بكل ما قاله. وقيل: إن المنادي هو ربيعة بن أمية بن خلف وكان صيّتاً، فصار يصرخ في الناس وهو تحت صدر ناقة رسول الله بكل ما يقوله ﷺ..



ومما قاله ﷺ في تلك الخطبة: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنكم لتُسألون عني فما أنتم قائلون؟»، قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهمّ فاشهد» ثلاث مرات..

وحجة الوداع هذه تسمى حجة البلاغ وحجة الإسلام؛ لأنه ﷺ ودَّع الناس فيها ولم يحج بعدها، ولأنه ذكر لهم ما يحلّ وما يحرم. وقال لهم: «هل بلغت»؛ ولأنه ﷺ لم يحج من المدينة غيرها.. وحول وقوف الحجيج في عرفات وتذكر ما جاء في خطبة حجة الوداع نظم الشاعر أبو زيد إبراهيم سيد قصيدة طويلة نشرتها مجلة «منار الإسلام» في عددها ١٢ من سنتها ١٤ ذي الحجة، عام ١٤٠٩هـ، مطلعها:

في ائتلاق الجلال في عرفات
وهدير الدعاء ملء الحياة

وفيها يقول:

كلهم قائل إلهي إني
أنا عبد يا غافر الزلات

فيباهي بهم إله البرايا
كل من في السماء من كائنات

هم عبادي أتوني اليوم شعثاً
لا يريدون غير وجهي وذاتي

فـاشــهــدوا أنــي غــفــرت ذنــوبــاً

وأجــبــت الــمــرجــو مــن دعــواتــي

وفيها يقول:

ورسـول الإسـلام يـعـلـن فـي الـكـون

ويــرســي الــمــبــادئ الــخــالــدات

إنَّ أمــــوالـــكـــم وإنَّ دمــــاءكــــم

فـي هـدى ربـكـم مـن الـحـرمـات

والـربـا فـاهـجـروا وأدوا حـقـوقـاً

لـنـسـاء فـي ديـنـكـم واجـبـات

○ ○ ○ ○ ○

جانب من مفاخرة وفد بني تميم

ذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل» أنه بعد فتح رسول الله مكة قدمت الوفود معلنة الدخول في دين الله.. ومن بين تلك الوفود وفد بني تميم، وفيهم حاجب زرارة بن عدس، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو الأهتم، وقيس بن عاصم، والحتات بن يزيد، ومعتمر بن زيد.. ومعهم عيينة بن حصن الفزاري. فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ وخرج إليهم. فقالوا: جئنا نفاخرك، فَأْذَن لشاعرنا وخطيبنا، فأذن لهم، فقام عطارد، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ، وهو أهله الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق، وأكثرهم عدداً، وأيسرهم عدة فمن يفاخرنا فليعدد مثل عددنا. فقال رسول الله لثابت بن قيس: «أجب الرجل». فقام ثابت، فقال: الحمد لله الذي له السماوات والأرض خَلْقُه، قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمهم نسباً وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حسباً، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله تعالى من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه أكرم الناس نسباً وأحسن الناس وجوهاً وخير الناس فعالاً. ثم كان أول الخلق استجابة لله حين دعاه نحن فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً، والسلام عليكم.

فقالوا: يا رسول الله ائذن لشاعرنا، فأذن له، فقام الزبرقان بن بدر فقال قصيدة منها:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا
من الملوك وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم
عند النهاب وفضل العرب يتبع

ونحن يطعم عند القحط مطعمنا
من الشواء إذا لم يؤنس القزع

فلا ترانا إلى حي نفاخرهم
إلا استقادوا وكان الرأس يقتطع

قال: وكان حسان بن ثابت غائباً فدعاه الرسول ليجيب شاعرهم. قال حسان: فلما سمعت قوله قلت على نحوه ـ والقصيدة طويلة ـ؛ منها قوله رضي الله عنه:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنّة للناس تتبع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم
عند الدفاع ولا يهون ما رقعوا

أكرم بقول رسول الله شيعتهم
إذ تفرقت الأهواء والشيع

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى له.. خطيبهم أخطب من خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا، وأصواتهم

أحلى من أصواتنا، ثم أسلموا وأجزاهم رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم. وبهم أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾.

○○○○○

من الأدلة على عدم معرفة الرسول الشعر

قال الله تعالى في سورة يس آية ٦٩، ٧٠: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ وما روي عنه ﷺ أنه قال بيتاً صحيحاً من الشعر.

وقرأت في الجزء الثاني من كتاب «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي. ما نقله عن أبي إسحاق، وعن الطبراني، وعن ابن هشام وعن الواقدي وعن القاضي عياض وغيرهم ممن تحدثوا عن غزوة أُحُد التي وقعت يوم السبت تاسع شوال من السنة الثالثة، والتي أصيب فيها المسلمون إصابة هي كما قال أصحاب الرأي الراجح والتحليل المنطقي السليم لا تعد هزيمة بمعنى الكلمة، وإنما تعد من الفوائد والحكم الربانية التي منها تعريف المسلمين بسوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب المنهي. . وأنه لو انتصر المسلمون دائماً لدخل فيهم من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة فاقتضت الحكمة بين الأمرين ليتميز الصادق من الكاذب.

وفيما رواه الواقدي أن رسول الله ﷺ أرسل محمد بن مسلمة بعد انتهاء معركة أحد ينادي في القتلى. . يا سعد بن الربيع ـ مرة بعد أخرى ـ فلم يجبه حتى قال: إن رسول الله ﷺ أرسلني أنظر ما صنعت؟ فأجاب بصوت ضعيف فوجدته جريحاً في القتلى وبه رمق. فقال سعد: أبلغ رسول الله ﷺ مني السلام وقل له يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف. ثم مات.

وروي أن هبيرة بن أبي وهب المخزومي كان من المشركين، وقد قال قصيدة يشيد فيها بانتصار المشركين في أُحُد. فكان كعب بن مالك رضي الله عنه ممن أجابه بقصيدة طويلة تبلغ نحواً من ٤٨ بيتاً، منها قوله:

مجالدنا عن ديننا كل فخمة
مدربة فيها القوانس تلمع

ومنها قوله:

وقال رسول اللّه لما بدوا لنا
ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا
وكونوا كمن يشري الحياة تقرباً
إلى ملك يحيى لديه ويُرجع
ولكن خذوا ميثاقكم وتوكلوا
على اللّه إن الأمر للّه أجمع

ومنها قوله:

فنلنا ونال القوم منا وربما
فعلنا ولكن ما لدى اللّه أوسع
ودار رحانا واستدارت رحاهم
وقد جعلوا كل من الشر يشبع
ونحن أناس لا نرى القتل سبة
على كل من يحمي الذمار ويمنع
جلاد على ريب الحواث لا نرى
على هالك عيناً لنا الدهر تدمع

قال ابن هشام: وكان كعب قد قال: (مجالدنا عن جذمنا كل فخمة)، فقال رسول الله ﷺ: «أيصلح أن تقول: (مجالدنا عن ديننا)؟» فقال كعب: نعم. فقال ﷺ: «فهو أحسن». فقال كعب: (مجالدنا عن ديننا كل فخمة...) البيت.

سالم الغطفاني يرثي النبيّ

جاء في كتاب «التعازي والمراثي» لأبي العباس محمد بن المبرد أنّ أبا المدائن روى أنه لمّا قبض النبي ﷺ صرخت أسماء بنت عميس. فنادى منادٍ من ناحية البيت يسمعون حسّه ولا يرونه يقول: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته؛ أَعَلَى رسول الله تبكون، أم على رسول الله تصرخون؟ فقالت أسماء: ما على رسول الله ﷺ نبكي، ولا على رسول الله نصرخ، ولكن على انقطاع الوحي عنا.. قال: ثم نادى الثانية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.. إن في عزاء كل مصيبة، وعوضاً من كل مرزئة، ودركاً من كل فائت، وخلفاً من كل هالك، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، المحبور من حبره الثواب، والخائب من أمن العقاب.

وعن أبي بكر الهذلي عن أبي المليح قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله جلّ ذكره: إذا أخذت صفّي عبدي فَصَبِرَ، لم أرض له ثواباً دون الجنة».

وأنشد الرياشي لرجل من غطفان من بني عبد الله كانت له صحبة.. قتل بجلولاء ـ وجلولاء: ناحية من الوادي في طريق خرسان ـ وبها كانت الوقعة المشهورة على الفرس.

قال: وكان هذا الرجل الذي صحبه مع رسول الله ﷺ يقال له: سالم، رثى رسول الله بقصيدة طويلة أثبتها المبرد في كتابه آنف الذكر، ومنها قوله:

أفـــاطـــم بـــكِّـــي ولا تـــســـأمـــي
بـصُـبْـحـك مـا طـلـع الـكـوكـبُ

فـــقـــد هـــدت الأرض لـــمـــا ثـــوى
وأي الـــبـــريـــة لا يـــنـــكـــبُ

فـــمـــا لـــي بـــعـــدك حـــتـــى الـــمـــمـــا
ت إلا جـــوىً داخـــل مـــنـــصـــب

وقـــد بـــان مـــنـــك الـــذي تـــعـــلـــمـــن
وضـــاقـــت بـــك الأرض والـــمـــذهـــب

ومن ذا ـ لك الويل ـ بعد الرسول
يـــبـــكـــي مـــن الـــنـــاس أو يـــنـــدب

وإن تـــبـــكـــه تـــبـــك نـــور الـــبـــلا
د ضـــخـــم الـــدســـيـــعـــة لا يـــحـــســـب

وإن تـــبـــكـــه تـــبـــك خـــيـــر الأنـــام
ســـريـــعـــاً ســـوابـــلـــه فـــخـــضـــب

○ ○ ○ ○ ○

شيء من شعر النصارى في المصطفى

نشرت مجلة «الدعوة» التي تصدر في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية في عددها ١٠٠١ لعام ١٤٠٥هـ، موضوعاً للدكتور محمد رجب بيومي عنوانه: «شعراء نصارى يمدحون محمد ﷺ».

والحقيقة أن من امتدح نبيّنا فإنه يجب علينا أن نشيد به، وأن نستزيده لا أن نصفه بالتملق، فلعل طلبنا الاستزادة من مدحه للرسول ﷺ يجرّه إلى البحث والتعمق في السيرة النبوية فيتأثر بما فيها من مآثر فيدخل في الإسلام بقلبه وفكره ولسانه وقلمه.

.. ولقد ذكر الدكتور محمد رجب البيومي بعض الأسماء التي ألّف أصحابها مؤلفات قيِّمة في مدح الرسول ﷺ، ونظموا القصائد في تمجيده؛ كالأستاذ خليل جمعة الطوال، والأستاذ خليل إسكندر القبري، والدكتور نظمي لوقا، والأستاذ وصفي الزنفلي ـ شاعر حمص ـ، وشاعر الأرز الأستاذ شلبي الملاط، والأستاذ جورج سلستي.. والشاعر اللبناني الأستاذ حليم دموس، والأديب مشيل الله ديردي الذي رسم صورة صادقة حلّل فيها جوانباً كثيرة من حياة النبي ﷺ. في قصيدة، منها قوله:

أقول للمصطفى أعظم بما ابتدعت
آيات برك من خير ومن نعم

لو تابع الخلق ما خلدت من سنن
لم يفتك الجهل والأعواز بالأمم

ولم ير الناس أحكاماً وفلسفة
في الاجتماع ستلقيهم إلى العدم

مذاهب أحدثت في الناس بلبلة
وأورثتنا بلايا الحرب والأرم

وكشاعر الأقطار العربية الأستاذ خليل مطران.. والشاعر محمود الخوري الشرتوني الذي تحدث عن العرب ورسولهم العظيم في قصيدة، منها قوله:

قالوا تحب العرب قلت أحبهم
يقضي الجوار عليّ والأرحام

قالوا لقد بخلوا عليك.. أجبتهم
أهلي وإن بخلوا عليّ كرام

ومحمد بطل البرية كلها
هو للأعارب أجمعين إمام

قالوا: البداوة. قلت: أطهر عنصر
صفت النفوس هناك والأجسام

○○○○○

مسيحي يمدح النبيّ

ماذا يعني امتداح النبي ﷺ من المسيحيين؟ وممن هو منهم على درجة كبيرة من الثقافة والعلم!.

والجواب بلا تردد: إنه يعني أن هناك تفهماً حقيقياً من قبل المسيحيين لدعوة رسول الهدى، الذي أرسله الله للناس كافةً.. بشيراً ونذيراً، يبشر بالجنة ويصف طريقها، وينذر من النار ويحذر من سلوك الطريق المؤدية إليها.

وإذا ما ألف كاتب مسيحي مؤلفاً يعترف فيه بسماحة الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ فطوى صفحة مظلمة كانت سائدة في الجاهلية ونشر صفحة مضيئة امتد ضياؤها وسطع نورها في مشارق الأرض ومغاربها.

.. أو صنع شاعر مسيحي قصيدةً يثني فيها على سيد المرسلين وخاتم النبيين ويذكر فيها معجزاته ﷺ، فإن هذا يعدّ كسباً وحجة قوية نجادل بها وندحض بها مفتريات بني قومه الذين لا يتورعون عن الافتراء على الصادق المصدوق الذي أرسله الله للناس كافة.

ومن المسيحيين الذين يجهرون بكلمة الحق، ويدلون برأيهم المنصف المسيحي؛ إلياس فرحات، الذي وصف ميلاد الرسول الكريم ﷺ، بأنه نور وهداية جلى الظلام، ومحا الجهل، ووطد الأمن ورسّى في القلوب التوادّ والتراحم والتعاطف والتعاون، فقامت أُلفة بين الناس وصار تآخي، وانعقدت أواصر، وأصبح الناس إخواناً في الله.

يقول إلياس فرحات من قصيدة له:

غـمـر الأرض بـأنـوار الـنـبـوة
كـوكـب لا تـدرك الـشـمـس عـلـوه

لـم يـكـن يـلـمـع حـتـى أصبحت
تـرقـب الـدنـيـا ومـن فـيـهـا دنـوه

بـيـنـمـا الـكـون ظـلام دامـس
فـتـحـت فـي مـكـة لـلـنـور كـوه

وطـمـى الإسـلام بـحـراً زاخـراً
بـذوي الـمـعـالـي والـفـتـوة

إن فـي الإسـلام لـلـنـاس عـلا
إن فـي الإسـلام لـلـنـاس أخـوه

فـادرس الإسـلام يـا جـاهـلـه
تـلـق بـطـش الـلّـه فـيـه وحـنـوه

يـا رسـول الـلّـه إنّـا أمـة
زجـهـا الـتـضـلـيـل فـي أعـمـق هـوه

ذلـك الـجـهـل الـذي حـاربـتـه
لـم يـزل يـظـهـر فـي الـشـرق عـتـوه

○ ○ ○ ○ ○

كيف ومتى بدأت المدائح النبويّة

ولا يُسْتغْرب أن يهتم المؤلفون في كل عصر بجمع ما مُدح به رسول الله ﷺ من قصائد؛ لأن هذا لا يعده المؤلف المسلم إلا جهد مقل بالنسبة له حيث يفرض عليه الواجب تجاه أمير الأنبياء وخاتم الرسل وقائد الغرّ المحجلين أكثر من ذلك، وأجود.

ولا غرابة أن يمتدح النبي ﷺ بالقصائد والأشعار؛ لأن مدحه بكل لسان وكل تعبير واجب.. والشعراء مهما أوتوا من بلاغة ومنطق فإنهم لن يوفوه ﷺ حقه، ولن تبلغ جميع مدائحهم له ما مدحه الله به في قوله تعالى في سورة القلم الآية ٤: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فعظمة الخلق التي أشار إليها تبارك وتعالى يعجز عن وصفها واستقصاء معناها وعمق مفهومها كل المادحين من بني البشر.

ولعل آخر ما قرأته من دراسة شعرية تتعلق بمدح خير البرية، تلك الدراسة التي قام بها الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين تحت عنوان: «المدائح النبوية». والحقيقة أنها دراسة جيدة حاول فيها الإشارة إلى بدء ظهور المدائح النبوية.. وقال: إن ظهورها الفعلي وانتشارها بالصورة التي نشهدها قد بدأ في القرن السابع الهجري مشيراً بذلك إلى مدائح علي بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠هـ، ومدائح محمد البصيري المتوفى تعريفاً، حيث يقول: «هي لون من التعبير عن العواطف الدينية» قال ابن حسين: وقد يستثنى من ذلك ما نظمه حسان بن ثابت وغيره عند وفاة النبي ﷺ..

والمتعارف عليه في الشعر العربي أن ما ينظم في الحياة يسمّى مدحاً

وما ينظم بعد الممات يسمّى رثاءاً، غير أنهم سمّوا ما نظم في ذكر النبي وأخلاقه وصفاته وما ورد من سيرته مدحاً لأسباب هي في حدّ ذاتها وجيهة.

فأولها أنهم لحظوا اتصال أثر الإسلام، وهو خلق الرسول ﷺ في حياته، فكأنه حي بتعاليمه واتصال تأثيره فيهم..

والثاني ليفرقوا بين رثاء النبي ﷺ ورثاء غيره من البشر.

والثالث أن الرثاء في أصله مدح لكنهم سمّوه رثاءاً ليفرقوا بين مدح الحي ومدح الميت..

وقد كانت هناك عناية بجمع ما هو مبثوث من مدائح في دواوين الشعر، ومن بين الذين جمعوا المدائح يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني المتوفى سنة ١٣٥٠هـ، حيث سمى كتابه «المجموعة النبهانية في المدائح النبوية» في أربعة أجزاء.. أما متى بدأت المدائح النبوية، فيرجح أنها في السنة السابعة للهجرة حيث نظم الأعشى الكبير ميمون بن قيس قصيدة مدح بها النبي بقوله:

أجدّك لم تسمع وصاة محمد
نبيّ الإله حين أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله
وأنك لم ترصد لما كان أرصدا

فإياك والميتات لا تأكلنها
ولا تأخذن سهماً جديداً لتفصدا

وذا النصب المنصوب لا تنسكنّه
ولا تعبد الأوثان واللّه فاعبدا



وصلِّ على حين العشيات والضحى
ولا تحمد الشيطان واللّه فاحمدا

ولا السائل المحروم لا تتركنه
لعاقبة ولا الأسير المقيدا

ولا تسخرن من بائس ذي ضرارة
ولا تحسبن المرء يوماً مخلداً

والقصيدة طويلة.

○ ○ ○ ○ ○

شاعر من نصارى العرب يمدح الرسول!!

سبق أن استعرضت شيئاً مما أثبته الأستاذ الدكتور محمد بن سعد بن حسين في بحثه الخاص بما مُدح به الرسول الكريم من قصائد.. وأشرت إلى التعريفات التي عنيت بمفهوم المدائح النبوية.. ومتى كان ظهورها وكيف تم جمعها بالشكل الذي نشهد اليوم.

وفي هذا الموضوع أتجه بقراءة في «كتاب المدائح النبوية» للدكتور ابن حسين إلى موضوع أفرد له بضع صفحات وهو موضوع وإن كنت قد تطرقت له في هذا الجزء تحت عنوان: «كيف ومتى بدأت المدائح النبوية»، إلا أنني أرى في الرجوع إليه ما يسرّ ويبهج الخاطر.

وهذا الموضوع عند ابن حسين هو المبحث الثامن وعنوانه: «مدح النبي في أشعار نصارى العرب»، وقد استعرض أسماء بعض الشعراء كمارون عبود الذي قال عنه أنه سمّى ولده محمداً، وذكر أن الأستاذ عبد العزيز الرفاعي حدثه بأن مارون عبود كان يسرّ إسلامه، وقد نطق بالشهادتين أمامه..

ثم استعرض بعض أسماء شعراء المهجر ومنهم إلياس قنصل صاحب المطولة العظيمة التي سمّاها «النبي العربي الكريم»، وعدد أبياتها ٨٣ بيتاً. وقد طبعها مستقلة في ٣٢ صفحة، وقدم لها بقوله: قرأت لأحد الكتّاب مقالة فإذا هي التحامل الكافر على الأمة العربية والتلميح الفاجر إلى جمودها لتمسكها بالقرآن الكريم..

وكررت إلى التاريخ أراجع مرة جديدة سيرة النبي الهاشمي، فإذا بي مرة جديدة أمام دنيا من الأخلاق السامية، والمواقف، واستعرضت



أعمال الذين يدّعون أنهم يريدون أن يقودوا العالم إلى رياض السلام والطمأنينة فلم أجد إلا أظافرهم تمزق المقدسات الإنسانية، وإلا الكذب والخداع فيما يبدون، وفيما يكتمون فخف استغرابي لتحامل الكاتب وتضليله: هو مندوبهم، هو المدافع عن منكراتهم.

.. ورأيتني أتقدم إلى الرد عليه بسلسلة من المقالات كشفت نيّاته وفضحت ترهاته، وجعلته من القوم الخاسرين.

ثم أندفع إلى جلاء الشعور الذي ساورني، وأنا أمعن في استقصاء البطولات التي ظهرت في أمتي فكانت قصيدتي هذه.

أنا لم أطالع في سيرة الرسول حياة نبي دعا الناس إلى عبادة الواحد القهار فحسب، وإنما طالعت فيها ـ إلى ذلك ـ استعراضاً لواقع العزة والكرامة وصوراً عما تستطيع أمتنا أن تأتيه من الأفعال لو عمدت إلى الأخلاق العربية، فجعلت منها النور الذي يهديها سواء السبيل. هذه هي المقدمة، أما القصيدة، فمنها قوله:

ويدور دولاب الزمان مهيئاً
عبرَ الدهور فيلتقي الجيشان

جيش يحارب للسماء وآخر
كثرت ذخائره لشيء فان

والحاكمون المعجبون بظلمهم
في كل ناحية بلا أعوان

والنصر في كف العروبة راية
بالعدل خافقة وبالعرفان

إني ذكرتك يا محمد ناشراً
روح الأخوة في بني الإنسان



يعلو - بلالُ - العبد أشرف قبة
ليذيع منها أشرف الألحان

حق المواهب أن يقدّر أهلها
لا فرق في الأجناس والألوان

والحكم للأعمال فاسع بغيرة
ترجح بفضلك كفة الميزان

○ ○ ○ ○ ○

القرآن الكريم

تكاد تُجْمِع المؤلفات التي عنيت بعلوم القرآن الكريم على أن القرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾﴾. نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول إلينا نقلاً متواتراً. المتعبد بتلاوته، المتحدي بأقصر سورة منه.. ويُجْمِع العلماء أن القرآن مرّ بمرحلتين في تنزيله:

الأولى: نزوله دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا. قال تعالى في سورة البروج الآيتان ٢١، ٢٢: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾، ويروى أن ابن عباس رضي الله عنه قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، ثم قال الله تعالى للقلم قبل أن يخلق الخلق: اكتب علمي في خلقي.. فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة. وكان هذا التنزل في شهر رمضان، ليلة القدر الموصوفة بأنها ليلة مباركة خير من ألف شهر.

المرحلة الثانية: نزوله منجماً على النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة خلال مدة بعثته موزعاً حسب الوقائع والأحداث.

ومن نونية الإمام العالم أبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني رحمه الله، أختار هذه الأبيات:

يا منزل الآيات والفرقان
بيني وبينك حرمة القرآن

اشرح به صدري لمعرفة الهدى
واعصم به قلبي من الشيطان



يسِّر به أمري واقضي مآربي
وأَجِرْ به جسدي من النيران

واحطط به وزري واخلص نيَّتي
واشدد به أزري وأصلح شأني

واكشف به حزني وحقق سريرتي
أجمل به ذكري وأعل مكاني

واقطع به طمعي وشرّف همتي
كثِّر به ورعي وأحيي جناني

امزجه يا ربّ بلحمي مع دمي
واغسل به قلبي من الأضغان

○ ○ ○ ○ ○

الحكمة من تنزيل القرآن

الحكمة من تنزيل القرآن الكريم لا تنحصر في شأن معين من شؤون الحياة، وإنما نزل ليشمل بأحكامه وتوجيهاته وأخباره وتشريعاته عامة الحياة. ويضيء ظلاماً دامساً ويحطم جاهلية جهلاء سادات الأرض قبل نزوله.. جاء وحياً يوحى إلى خاتم النبيين محمد ﷺ فكان هدياً ونوراً وشفاءاً.

ما عرفت البشرية له نظيراً في التوجيه والإرشاد إلى الطريق القويم، فآمن الناس به ودخلوا في دين الله أفواجاً بقلوب مؤمنة مطمئنة إلى عدل تشريعه.. كيف لا وهو الدستور السماوي الأبدي ورسالة أخيرة إلى رسول أخير، ولذلك أخبر جلّ شأنه بأن هذا القرآن سيظل في عنايته صافياً نقياً لا تمتد إليه يد محرفة أو فكر معطل. قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾. وهو حجة الله على الزنادقة والملحدين والكفرة والمنافقين وكل مخالف لأحكام الدين.

ولقد جاء في كتاب «مناهل العرفان في علوم القرآن»: إن الحكمة من تنزيل القرآن نفع المؤمنين وغير المؤمنين؛ أما المؤمنون فيزدادوا إيماناً على إيمانهم وأما الكفرة فتسوقهم تلك الحكمة الباهرة إلى الإيمان إن كانوا منصفين حين يعلمون أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان.

وجاء في نونية أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المشهور بابن قيم الجوزية قوله:



فالوحي كاف للذي يعنى به
شاف لداء جهالة الإنسان

وتفاوت العلماء في أفهامهم
للوحي فوق تفاوت الأبدان

والجهل داء قاتل وشفاؤه
أمران في التركيب متفقان

نص من القرآن أو من سنّة
وطبيب ذاك العالم الرباني

والعلم أقسام ثلاث ما لها
من رابع والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله
وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه
وجزاؤه يوم المعاد الثاني

والكل في القرآن والسنّة التي
جاءت عن المبعوث بالفرقان

○ ○ ○ ○ ○

أول ما نزل من القرآن الكريم

هناك اختلاف في أول ما نزل من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ. ففي رواية للبخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها في حديث طويل منه، بأن أول ما نزل عليه ﷺ من القرآن هو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ ويروى أن الملك الذي جاءه أقرأه حتى بلغ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾. ومن المحدثين من يرى أن أول ما نزل عليه ﷺ إطلاقاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، وهذا ما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؛ فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾. والحديث طويل.

وروي عن ميسرة بن شرحبيل.. أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة والحديث طويل منه: إن محمداً ﷺ ذهب هو وأبو بكر إلى ورقة بن نوفل فقال له ﷺ: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد؛ فأنطلق هارباً في الأفق»، فقال ورقة: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ - حتى بلغ - ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. وينتهي العلماء في تحديد أول ما نزل من القرآن إلى أنه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾، معللين ذلك بأن ما روته عائشة لا يقوى على معارضة حديث غيره في هذا المجال.

ولقد أورد صاحب كتاب «الهدى والبيان في أسماء القرآن» الشيخ صالح بن إبراهيم البليهي قصائداً ومقاطعاً من قصائد. فلأبي محمد عبد الله بن محمد القحطاني قوله في القرآن:

لا ريب فيه بأنه تنزيله
وبدا به التنزيل في رمضان

اللّه فصَّله وأحكم آيه
وتلاه تنزيلاً بلا أكان

ولإسماعيل صبري:

لَقّن الوحي آية لنبي
عز قدراً عن سائر الإنسان

خير روح حلت بأشرف جسم
عبقري النهى عظيم الجنان

ولوليد الأعظمي:

قرآننا مشعل يهدي إلى سبل
من حاد عن نهجها لا شك خسران

هو السعادة فلنأخذ بشرعته
وما عداه فتضليل وبهتان

هو السلام الذي تهفو القلوب له
فلم يعد يقتل الإنسان إنسان

هو النشيد الذي ظلَّت تردده
على مسامع هذا الكون أزمان

○○○○○

كيف رُتبت آيات القرآن في المصحف الشريف؟

كان أمين الوحي جبريل عليه السلام ينزل بالآيات على رسول الله ﷺ، ويعلمه أنها تكتب عقب آية كذا في سورة كذا.. وكان ﷺ يبلغ كل ما ينزل عليه تباعاً للناس كافة، لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

لذا كان ترتيب الآيات في سورها ترتيباً توقيفياً من جبريل عليه السلام عن رب العالمين وكان الرسول ﷺ يقرأ القرآن في الصلاة وغيرها بالترتيب التوقيفي ويعلمه الناس حتى يقرأوا القرآن به. وكانت الآيات تكتب بأمره ﷺ على هذا الترتيب التوقيفي.

وقد جمع الصحابة رضوان الله عليهم القرآن بعده ﷺ مرتباً لم يقدم فيه مؤخر ولم يؤخر فيه مقدم.

قال البغوي في «شرح السنة»: إن الصحابة رضي الله عنهم قد جمعوا بين الدفتين القرآن دون أن يزيدوا فيه شيئاً أو ينقصوا منه شيئاً أو يضعوا له ترتيباً غير ما أخذوه عن رسول الله ﷺ.. وكان ﷺ يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو في مصاحفنا بتوقيف من جبريل عليه السلام إيَّاه على ذلك وأعلاه عند نزول كل آية: إن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا. وهو على هذا الترتيب مكتوب كله في اللوح المحفوظ. وقد أنزله الله مفرقاً على رسوله على حسب الحاجة..

وقد حفظ القرآن على ترتيبه جماعة الصحابة رضي الله عنهم.. منهم: عبد الله بن مسعود.. وأبيّ بن كعب.

وهذه أبيات من قصيدة عنوانها: «الوصية بكتاب الله» نسبها عبد الله بن جار الله الجار الله للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي ومنها:

وبالتدبر والترتيل فاتل كتا
ب اللّه لا سيما في حندس الظلم

حكم براهينه واعمل بمحكمه
حلا وحظراً وما قد حده أقم

واطلب معانيه بالنقل الصريح ولا
تخض برأيك واحذر بطش منتقم

وعن مناهيه كن يا صاح منزجراً
والأمر منه بلا ترداد فالتزم

يقال اقرأ ورتل وارق في غرف الـ
جنان كي تنتهي للمنزل النعم

فمن يقمه يكن يوم المعاد له
خير الإمام إلى الفردوس والنعم

ويقول شاعر آخر:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت
وجئتنا بكتاب غير منصرم

آياته كلما طال المدى جدد
يزينهن جمال العتق والقدم

○ ○ ○ ○ ○

أبو بكر هو صاحب فكرة جمع القرآن!

لما أصيب المسلمون في معركة الحديقة باليمامة، وقتل خلق كثير من حفظة القرآن من الصحابة.. خاف أبو بكر رضي الله عنه أن يهلك طائفة من أهل القرآن، وإنما كان في العُسْب والرقاع؛ فأمر الناس فأتوه بما كان عندهم منه، فأمر به فكتب في الورق، فلما كان أيام عثمان كثر اختلاف الناس في القراءات. فقالوا: حرف عبد الله، وحرف أبيّ، وحرف أبي موسى.. فاستشار الصحابة فأشاروا عليه بجمع الناس على مصحف واحد، فجمع ما كان في أيدي الناس من المصاحف وأحرقها، أو غسلها.. وأمر سعيد بن العاص وكان أفصح الناس، فأملى على زيد بن ثابت فكتب مصاحف وفرقها في البلدان.. ومن هذا نتبين أن أبا بكر أول من جمع القرآن، وأن عثمان أول من جمع الناس على مصحف واحد..

قال أبو هلال العسكري في كتاب «الأوائل»: «والمصحف بكسر الميم لغة أهل الحجاز وهي رديئة؛ لأنه أُخرج مُخرج ما يتبادل باليد، والمصحف أكبر من ذلك.. وأهل نجد يقولون: مُصْحف بضم الميم من قولك: أصحفته فهو مصحف إذا جعلت بعضه على بعض، وهي أعجب اللغتين إليّ»..

وقال أبو هلال العسكري: وقالوا: أول من جمع القرآن عمر وكان لا يقبل من أحد شيئاً منه حتى يشهد شاهدان، فمات عمر قبل أن يجتمع.. وقد روي أن علياً أول من شرع في جمع القرآن.

ولذلك قصة فحواها: أنه لما قبض رسول الله ﷺ تشاغل بعد دفنه فبايع الناس أبا بكر، فجلس عليٌّ يجمع القرآن وكتبه في الخزف

وأكتاف الإبل، وفي الرق، فمكث ثلاثة أيام، واجتمعت بنو هاشم كلها معه ولم يبايعوا أبا بكر والزبير معهم، فلما كان اليوم الثالث قال أبو بكر لعمر: قد تخلَّف بنو هاشم عني، ولا يتم الأمر حتى يبايعوا، فجاءا إلى علي فدخلا عليه، فقال أبو بكر: أبا حسن ما أبطأ بك عنا؟ قال: يا أبا بكر: ما كنت أظن أنك تُقدم على أمر وأنا فيكم قال: أبا حسن: أكرهت إمارتي؟ ابسط يدك أبايعك. قال: أو تفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: ما كنت لأفعل، إن رسول الله ﷺ رضيك لديننا فرضيناك لدنيانا. ما كان تخلفي عن بيعتك كراهة مني لها، ولكن كنت أجمع ما أنزل الله على نبيّه عليه الصلاة والسلام من القرآن، وهو ذا قد جمعته في هذا المصحف الملأي؛ ثم بايعه..

قال أبو هلال العسكري كذا سمعته، والصواب: فها هو ذا قد جمعته. ولا يقال: وهو ذا.

وهذه أبيات من قصيدة للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي عنوانها: «الوصية بكتاب الله»:

هو الكتاب الذي من قام يقرؤه
كأنما خاطب الرحمن بالكلم

هو الصراط هو الحبل المتين هو الـ
ـميزان والعروة الوثقى لمعتصم

هو البيان هو الذكر الحكيم هو
التفصيل فاقنع به في كل منبهم

هو البصائر والذكرى لمدّكر
هو المواعظ والبشرى لغير عمي

هو المنزل نوراً بيناً وهدى
وهو الشفاء لما في القلب من سقم



مـهـيـمـنـاً عـربـيـاً غـيـر ذي عـوج
مصـدقـاً جاء لـلـتـنـزيـل في الـقـدم

فـيـه الـتـفـاصـيـل لـلأحـكـام مع نبأٍ
عـمـا سيأتي وعـن مـاضٍ مـن الأمـم

فـانـظـر قـوارع آيـات الـمـعـاد بـه
وانـظـر لـمـا قصّ عـن عـاد وعـن ارم

○ ○ ○ ○ ○

فضل القرآن الكريم

القرآن الكريم هو النور الذي أنزله الله تعالى على نبيّه محمد ﷺ، فأضاء الدنيا وجلا الظلام عن النفوس المؤمنة به..

وعن فضل القرآن قال ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أما إنها ستكون فتنة» - قال علي - قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟. فقال: «كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل. ما تركه من جبار إلا قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى. وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء. ولا تلتبس به الألسنة. ولا تشبع منه العلماء. ولا يخلق على كثرة الرد. ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

هذا هو قول سيد المرسلين وصفوة خلق رب العالمين عن القرآن وفضله، جاء في إعجاز وإيجاز وسحر بيان.. وكيف لا يكون ذلك منه ﷺ وهو الذي أنزل عليه وتأدب بآدابه؟.

وفي فضل القرآن والحث على التمسك به يقول الشاعر هاشم الرفاعي، واسمه سيد بن جامع بن هاشم بن مصطفى الرفاعي من قصيدة طويلة:

صدق الرسول ومن سواه مصدّق
إذ قال حين دنا من السكرات



إني تركت لكم كتاباً جامعاً
هو خير دستور لخير قضاة
قسماً بربي لن تضلوا طالما
هو بينكم بمثابة المشكاة
ومضى الرسول فليتنا من بعده
كنا لنصح حديثه بوعاة

* * *

إن الأوائل حينما حكموا به
جعل الأوائل أفضل السادات
فتح المماليك والشعوب وأخضعوا
حكامها من كل باغ عات
حتى إذا راحوا وأقبل بعدهم
خَلَفٌ أضاعوا محكم الآيات
هانوا ولو حكموا به ما ذلهم
أعداؤهم وقتاً من الأوقات

○○○○○

النّار لا تحرق القرآن

تحطمت طائرة الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق في مستهل عام ١٤٠٩هـ، ووجدت نسخة من القرآن الكريم لم تحترق ولم يمسها أي تلف. وتلك عبرة. ولكن يجب أن لا يكون فيها غرابة فالله سبحانه وتعالى قد أخبر بحفظه للقرآن في سورة الحجر الآية ٩ فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾. وهذه ليست الحادثة الأولى التي يسلم فيها المصحف من الاحتراق بل هناك عدة حوادث، ففي عام ١٩٧٧م تحطمت طائرة وشب فيها الحريق وانصهر حديدها وسلم مصحف كان فيها... وكثيرة هي الأخبار التي تشير إلى سلامة المصحف من الحرائق التي تشب في البيوت والمكتبات... لكن الذي يثير الدهشة هو ما حدث في ولاية كنجولا النيجيرية مع القس ولبرفروس الذي وقف وبيده مصحف كان قد جذبه من بين يدي الحاضرين ثم ألقى به على الأرض، وسكب عليه مقداراً من البنزين وهمّ بإشعال عود ثقاب ليحرقه، لكن النار شبت في يد القس قبل أن يلقي عود الثقاب على المصحف.

وكان الحاضرون يتابعون هذا المشهد وهم في ذهول حيث جرى ذلك أثناء قداس في الكنيسة وعقب هذا الحادث أعلن القس فورس دخوله في الإسلام وتبعه رئيس الكنيسة يعقوب موسى وتوالى دخول المبشرين المسيحيين في الإسلام حتى بلغ عددهم مئتي مبشر وتحول هذا القس إلى داعية إسلامي كبير... ومن الحوادث التي سلم منها المصحف حادث احتراق المسجد النبوي عام ٦٥٤هـ، حيث سلمت القبة التي يوجد بها المصحف.

وفي قصة صحيفة قريش، تلك الصحيفة المشؤومة التي عُلِّقت داخل الكعبة فأتت عليها الأرضة إلا ما كان فيه اسم الله، عبرة لمن كان يعتبر.

ومما تقدم يتضح أن الله سبحانه وتعالى قد ضمن القرآن من التلف والضياع وحفظه من العبث، وما علينا إلا أن نعمل بأحكامه ونتأدب بآدابه..

يقول شاعر العروبة والإسلام أحمد محرم من قصيدة استعرض فيها مكانة القرآن:

إذا الممالك مالت عن مناهجه
كانت حضارتها زوراً وبهتانا

من راح من قومنا يحيي مراشده
أحيا بها أمماً شتى وأوطانا

إن أنت أطلقت في الآفاق حكمته
أطلقت للعلم والعرفان طوفانا

وإن رميت بني الدنيا بقوته
ردّ العُباب دماً والأرض بركانا

يزجي الأساطيل في الآيات ظافره
ويغمر الحرب أبطالاً وفرسانا

بنى ـ الرسول ـ عليه أمة هدمت
أقوى الشعوب به عزاً وسلطانا

إن الذي نزَّل ـ الذكر الحكيم ـ على
ـ رسوله ـ زاده حفظاً وتبيانا

باق على الدهر لا يخشى غوائله
ولا يخاف من الباغين عدوانا

الحث على تعلم القرآن وتعليمه

جاء في كتاب «المستطرف» لشهاب الدين الأبشيهي قوله: وفد غالب بن صعصعة على عليّ كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق، فقال: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم. قال: فما فعلت بإبلك؟ قال: أذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق ـ أي ما يتوجب على المسلم أن يؤديه لله ـ قال: ذلك خير سبلها. ثم قال له: يا أبا الأخطل من هذا الذي معك؟ قال: ابني وهو شاعر. قال: علِّمه القرآن فهو خير له من الشعر. فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن. فحفظه في سنة..

ومما قالته الشعراء في عظم القرآن وعلو مكانته هذه الأبيات من قصيدة طويلة للشيخ عبد الحميد الخطيب:

هو خير ما يدعو الفتى لإلهه
بأدلة لا تقبل الريبات

هو حجة المولى يقدمها لمن
رام القناعة دونما إعنات

هو دعوة للناس من رب الورى
بتعطف وبمنتهى الرأفات

هو خير إنذار لكل معاند
قد صيغ في شيء من الرحمات



هـو خـيـر هـاد لـلأنـام لـكـل مـا
فـيـه صـلاحـهـم مـن الـطـاعـات

هـو خـيـر دسـتـور لأحـكـام الـعـبـا
د وبعضهم ومع العلى من الذات

هـو خـيـره مـعـجـزة لأمـة أتـت
شـهـدت لـه بـالـعـلـم والـحـكـمـات

وبـحـسـن أخـلاق وعـظـم ثـقـافـة
وفـصـاحـة في الـنـطـق بـالـكـلـمـات

○○○○○

آخر ما نزل من القرآن الكريم

جاء في «مناهل العرفان في علوم القرآن» للأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني قوله: اختلف العلماء في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق لعدم الاستناد إلى حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، فالنسائي أخرج أن آخر ما نزل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ وزاد ابن أبي حاتم فيما أخرجه قوله: وعاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول.. وأخرج ابن جرير عن ابن المسيب «أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرض آية الدين»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ سورة البقرة وهي أطول آية في القرآن، وأخرج ابن مردويه أن آخر آية نزلت: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ آل عمران، وأخرج البخاري أن آخر ما نزل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾، وروى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ سورة النساء.. وأن آخر سورة نزلت: (براءة)، وقيل: إن آخر سورة نزلت سورة المائدة. وقيل: إن آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة. وأخرج ابن جرير أن آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، وروى مسلم أن آخر ما نزل هو سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾، وهناك شبه إجماع على أنها آخر سورة وليست آخر

آية نزلت. وقد روي أن النبي ﷺ قال حين نزلت: «نُعِيتْ إليَّ نفسي»، ويقول صاحب كتاب «مناهل العرفان في علوم القرآن»: إن الذي ترتاح إليه النفس من هذه الروايات هو أن آخر القرآن نزولاً على الإطلاق قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ الآية، ويعلل القاضي أبو بكر عدم إجماع الرواة على تعيين آخر آية نزلت بقوله: ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل وغيره سمع منه بعد ذلك ولم يسمعه هو.. وما قاله إسماعيل صبري في وصف القرآن:

دعوة الحق في كتاب كريم
أعجز الخلق ما حوى من بيان

سيرت آية الجبال وأحيت
سمع من مات من بني الإنسان

لفظه محكم غني فصيح
عربي المبنى جزيل المعاني

فاض جداً بلاغه وتسامى
في جلاله له انحنى الثقلان

إنه من لدن حكيم عليم
معجز الرأي حجة في البيان

لم يبدل من آية أي حرف
هكذا شاء فاطر الإنسان

راقبته عين العناية حفظاً
وأنارت به فؤاد الزمان

هو باق كما تنزل حتى
يبعث الخلق للمصير الثاني

صفة قراءة النبيّ للقرآن

عن يعلى بن محلك أنه سأل أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ، فإذا هي تنعت قراءته مفسّرة حرفاً حرفاً.

وذكر البخاري، والنسائي، وأبو داود عن قتادة أنه قال: قلت لأنس بن مالك: كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ؟ قال: مداً ـ ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ـ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. قال الترمذي في كتابه «أوصاف النبي»: وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان يمد قراءته في البسملة وغيرها.

وأخرج أبو داود والترمذي في «جامعه» ومسلم في «مسنده» عن عبد الله بن قيس قال: سألت عائشة عن قراءة النبي ﷺ: أكان يُسرُّ بالقراءة أم يجهر. قالت: كل ذلك قد كان يفعل. قد كان ربما أسرّ وربما جهر. فقلت: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة.

.. وأخرج النسائي وابن ماجه عن أم هاني قالت: كنت أسمع قراءة النبي ﷺ بالليل وأنا على عريشي.

روى البخاري ومسلم وأبو داود عن معاوية بن قرّة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: رأيت النبي ﷺ على ناقته يوم الفتح وهو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال: فقرأ ورجّع. قال: وقال معاوية بن قرّة: لولا أن يجتمع الناس عليّ لأخذت لكم في ذلك الصوت. أو قال: اللحن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت قراءة النبي ﷺ ربما سمعه من في الحجرة وهو في البيت..



واقتداءً برسول الله ﷺ أخذ المسلمون في المداومة على قراءة القرآن والتحاث على حفظه وتعهده، وتدبر معانيه والتخلق بأخلاقه.

يقول عبد الرحمن خليف عضو المجلس الإسلامي بتونس:

كم أودع اللّه في القرآن من خلق
يسمو به المرء إسلاماً وإيماناً

اللّه أنزله للخلق تبصرة
وكان حقاً على الإحسان برهانا

ما أسعد الحافظين الناشرين له
بين الورى فَسَقَوْا من كان ظمآنا

نيابة عن رسول اللّه ينشره
أهل المبرات والمعروف قربانا

ألم يقل بلِّغوا عني ولو آية
حفظاً وخطاً وترتيلاً وإتقانا

يا رب حفظاً لكل العالمين على
نشر الكتاب وزدهم منك رضوانا

آمين يا رب وارزقنا إقامته
على الذي ترتضي سراً وإعلانا

رحماك إن أخطأ الساعي ومغفرة
من فيض جودك إلطافاً وتحنانا

○○○○○

تفسير القرآن

جاء في كتاب «قصة التفسير» للدكتور أحمد الشرباصي: الفَسْر في اللغة: البيان، والتفسير مثله. والفسر كشف المغطى وتفسير القرآن هو بيان كلام الله تعالى بذكر مفهومات الكلمات والعبارات الموجودة في القرآن. .

وقال بعضهم: التفسير في الاصطلاح هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها. . وكلمة تفسير. . تدل بصفة خاصة في الإسلام على تفاسير القرآن، وعلى علم التفسير نفسه يعرف باسم «علم القرآن والتفسير»، وقد يطلق على كلمة (التأويل). والتأويل لفظ مأخوذ من مادة الأول (بسكون الواو) وهو الرجوع، فكأنَّ المفسر صرف الآية وعاد بها إلى ما تحتمله من المعاني.

قال الراغب الأصفهاني: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرادتها. . وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل. . وقال غيره: التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً. . والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معانٍ مختلفة. . وقال أبو طالب التغلبي: التفسير بيان وضع اللفظ، إمّا حقيقة أو مجازاً. والتأويل تفسير باطن اللفظ. . فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد. والتفسير إخبار عن دليل المراد. مثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ تفسيره: إنه من الرصد. وتأويله. . التحذير من التهاون بأمر الله. .

وقيل: إن التفسير يتعلق بالرواية. وأما التأويل فيتعلق بالدراية. . وقال الدكتور الشرباصي: لقد أصاب ابن فارس في كتابه «الصاحبي»

حين قال: معاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة: المعنى، والتفسير، والتأويل. وهي وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة.

وفي بيان القرآن وفضله وإعجازه وإيجازه سالت أقلام مفكري الإسلام بفيض لا ينتهي له عند حد. وواكبها في ذلك الشعراء فنظموا في ذلك مطولات تزخر بتعظيمه.. من أولئك العلامة الصنعاني، وذلك لقوله من قصيدة طويلة:

تدل على التوحيد فيه قواطع
بها قطعت للملحدين رقاب

وفيه الدواء من كل داء فثق به
فوالله ما عنه ينوب كتاب

وما مطلب إلا وفيه دليله
وليس عليه للذكي حجاب

يريك صراطاً مستقيماً وغيره
مفاوز جهل كلها وشعاب

تزيد على مر الجديدين جدة
فألفاظه مهما تلوت عذاب

وفيه هدى للعالمين ورحمة
وفيه علوم جمة وثواب

أطيلوا على السبع الطوال وقوفكم
تدر عليكم بالعلوم سحاب

وكم من ألوف في المئين فكن بها
ألوفاً تحد ما ضاق عنه حساب[1]

---

(١) المئون: السور التي تزيد آياتها على مئة آية أو تقاربها.

الفرزدق يسر بحمل بني تميم للمصاحف!

يبرز الانتماء القبلي وتتحرك له الأفئدة في كل موقف، وعند كل ملمة مهما أنكر المرء عدم وجود هاجس للعصبية في نفسه.

أما صدق الانتماء فإنه يعني وجود محبة في القلب لمن ينتمي إليه لا تفصلها الحزازات النفسية التي يثيرها في غالب الأحيان الأعداء والمغرضون المبغضون..

قال أبو العباس محمد بن المبرد: حدثني العباس بن الفرج في إسناد له ذكره.. قال: كان الفرزدق يخرج من منزله فيرى بني تميم والمصاحف في حجورهم فَيُسرُّ بذلك ويجذل به. ويقول: إيهٍ فدى لكم أبي وأمي!! كذا والله كان آباؤكم. وافتخار الفرزدق بمثل هذه الصفات في بني قومه يعد قمة الافتخار.. وإفصاحه عن سروره برؤية بني قومه وهم يقرؤون القرآن يعد من أرقى الأساليب في ذكر المناقب.

أما الحث على تدبر القرآن وقراءته فهو أمر يفرضه الإسلام علىٰ بنيه بصفة عامة، كيف والقرآن حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، ووحيه لأفضل وأكرم الأنبياء والمرسلين.

قال الشيخ عبد الحميد الخطيب في مديح القرآن وبيان شيء من عظمته قصيدة طويلة، منها قوله:

جمع الفضائل في ثناياه وما
تصل العقول إليه بالفكرات



هـو نـدوة عـلـمـيـة رمـزت إلـى
كـل الـعـلـوم ومـنـتـهـى الـحـكـمـات

هـو آيـة فـيـهـا الـمـعـانـي والـبـيـا
ن تـمـثـلاً فـي أقـصـر الـكـلـمـات

وكذا البلاغة والبديع بحيث أعـ
ـيـت مـدعـي هـذيـن مـن نـسـمـات

حـتـى أقـروا إنـهـا مـن ربـهـم
إذ لـم يـجـاروا أصـغـر الـسـورات

هـو مـعـجـم لـلـغـات يـعـرب كـلـهـا
ولـهـا أشـار تـعـدد الـصـيـغـات

هو خير تاريخ لمن سبقوا من الـ
أمـم الـتـي مـرت مـع الـحـقـبـات

مـع مـا هـنـاك مـن مـواضـع عـبـرة
وإشـارة لـوسـائـل الـخـيـرات

○○○○○

الجعد بن درهم وقوله بخلق القرآن

جاء في كتاب «الرد على الجهمية والزنادقة» للإمام أحمد بن حنبل تحقيق الدكتور: عبد الرحمن عميرة.. أن الجعد بن درهم الذي كان مولى بني الحكم ومربياً لمروان بن الحكم الذي لقب فيما بعد بمروان الجعدي؛ لمناداته بالمبادئ التي تلقاها من الجعدي. ومنها: التعطيل، والقول بخلق القرآن.. ولما ظهرت آراؤه هذه طرده الأمويون من دمشق فذهب إلى الكوفة وتلقاه فيها الجهم بن صفوان. وتعلم آراءه، لكن هشام بن عبد الملك طارده وحارب آراءه فكتب إلى عامله في الكوفة.. خالد بن عبد الله القسري يأمره بقتله فصادف وصول الكتاب أيام عيد الأضحى، فلما صلّى خالد صلاة العيد خطب في الناس وقال في آخر خطبته: أيها الناس انصرفوا وضحّوا بضحاياكم، تقبَّل الله منا ومنكم فإني أريد أن أضحي بـ«الجعد بن درهم» فإنه يقول: ما كلّم الله موسى تكليماً.. ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً.. تعالى الله عما يقول علواً كبيراً.. ثم نزل وجزر رأسه بالسكين بيده.

يقول الشيخ محمد بن علي الشوكاني في ديوانه «أسلاك الجوهر»، مفتخراً بتصديه لأصحاب المقولات ومجادلتهم بمنطق الحق المسكت. يقول:

إني إذا صال إقبالُ الجدال فتى
لا يُصْطَلى لي بنار في الكريهات

مُعَرِّقٌ لجباهٍ ملقم حجراً
أفواه أبطال أرباب المقالات

ويقول:

وما عليك إذا لم يَرْتَضوا عملاً
إن كان يرضى به ربُ البريات

ولا يضرك للمقال إذا
ما كنت يوماً مصيباً في المقالات

والحق يعلو ويعلو من يناصره
ويخفض اللّه أرباب الضلالات

ويقول:

متى أرى الحق يعلو فوق باطلهم
وقد تبدَّلَ صولات بصولات

ويُنْشر العدل في أمن وفي دعة
دولاتهم قد تقضت عند دولاتي

أوقاتهم ذهبت في غير مكرمة
فاستبشروا قد أتاكم طيب أوقاتي

ooooo

الشيطان يثأر لدعوى خلق القرآن

روى صاحب كتاب «المستطرف» شهاب الدين الأبشيهي أن الزمخشري حكى في كتابه «ربيع الأبرار». ما قيل من أن إبراهيم الخواجي مرَّ بمصروع فأذن في أذنه فناداه الشيطان من جوفه: دعني أقتله فإنه يقول: إن القرآن مخلوق.

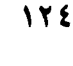
وفي خلق القرآن ودفاع الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عنه هذه الفرية الصادرة من المعطلة، والجهمية، ذلك الدفاع الذي أدى إلى سجنه وجلده لإصراره على أن القرآن منزل غير مخلوق، وقد تسابق شعراء الإسلام في تأييده ومنهم يحيى بن يوسف الصرصري الذي قال عنه ابن قيّم الجوزية في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»: إنه إمام في اللغة والفقه والسنّة والزهد والتصوف.. ومن قصيدة للصرصري الأنصاري التي يهجو فيها ابن خنفر الجهمي، أذكر هذه الأبيات وفقاً لما شرطته:

وإذا العقائد بالضلال تخالفت
فعقيدة المهدي أحمدَ أحمدُ

هي حجة اللّه المنيرة فاعتصم
بحبالها لا يلهينك مفسد

إن ابن حنبل اهتدى لما اقتدى
ومخالفوه لزيفهم لم يهتدوا

ما زال يقفو راشداً أثر الهدى
ويروم أسباب النجاة ويجهد



حتى ارتقى في الدين أشرف ذروة
ما فوقها لمن ابتغاها مصعد
نصر الهدى إذ لم يقل ما لم يقل
في فتنة نيرانها تتوقد
ما صدَّه ضرب السياط ولا ثنى
عزماته ماضي الغرار مهند
فهناه حب ليس فيه تعصب
لكن محبة مخلص يتودد

○○○○○

لغز في سور القرآن وأجزائه وأحزابه

جاء في كتاب «الإلمام» لمحمد بن قاسم الإسكندراني أن بعضهم قال:

يا فاضلاً قد حل أقليدسا
لم يُخط في شكل من أشكاله

اسمع مقالاً حار ذو اللب في
إيضاح معناه وإشغاله

فإن شيء عشره نصفه
ونصفه تسعة أمثاله

وليس يخفى ذاك عن فاضل
يشهد للّه بأفعاله

وتفسير هذا: أن عدد سور القرآن الكريم مائة وأربعة عشرة سورة نصفها من الفاتحة إلى الحديد سبع وخمسون سورة - عدد أحزابها أربعة وخمسون حزباً - ومن الحديد إلى آخر عدد سور القرآن سبع وخمسون سورة، فجاءت هذه ستة أحزاب، وستة في عشرة بستّين حزباً. انتهى.

قال ابن عباس رضي الله عنه: جملة آيات القرآن ستة آلاف آية وست وستون منها ألف آية أمر. وألف آية نهي. وألف آية وعد. وألف آية وعيد. وألف آية قصاص وأحكام أخرى، وخمسمائة حلال وحرام. وخمسمائة دعاء وتسبيح. وستون ناسخ. ومنسوخ. انتهى.

وفي آيات القرآن الكريم يقول الشاعر أحمد مظهر العظمة من قصيدة طويلة:

للّه آية الكتاب فإنها
تحيي الرميم وتبعث الآمالا

وتمزق اليأس المذل وتبعث الـ
ـعز المجد الثابت الفعالا

وتهون الخطب المحتم بالذي
تمليه إن صبر وإن أمثالا

وتمد في النفس الرجاء ونوره
لبلوغ ما يعلو النجوم كمالا

○○○○○

من نبع القرآن

ألَّف الدكتور محمد رجب البيومي عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة بمصر كتيباً أستطيع أن أسميه ديوان شعر ملتزم بروح القرآن الكريم حيث أنه وأعني بذلك الدكتور البيومي قد انتخب آيات قرآنية كريمة، فراح يحلق في أجوائها العطرة بشاعريته الرقيقة ذات الإحساس الديني.. فهو في منهجه في صنع ذلك الكتيب القيِّم ينتخب الآية أو الآيات ذات الموضع المتحد، ثم يعقب عليها بأبيات تدور حول مفهومها وما تعنيه من أمر.

وتحت عنوان: «طريد السماء» أورد الآيات التي تشير إلى خلق آدم عليه السلام وما حصل له مع إبليس اللعين. وهي قوله تعالى من سورة صٓ من الآيات من ٧١ إلى ٨١: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

وقد حلّق الدكتور محمد رجب البيومي في أجواء هذه الآيات الكريمات بشاعرية رقيقة عذبة تمخضت عن قصيدة همزية طويلة قوامها ستة وستين بيتاً، منها قوله:

آثـر الـلّـه آدمـاً بـمـزايـا
خـلـصـت جـوهـراً وطـالـت سـنـاء



ويل إبليس ما سيصنع في أ
فق تسامى طهراً وشفّ صفاء

قد أراد الإغواء في الملأ الأ
على وصعب أن يملك الإغواء

ومنها يقول:

عارض اللّه ذا الجلال وغالى
في التأبي لحاجة ومراء

ظهر الزيف في تقاه فما فا
ه بذكر الرحمن إلا رياء

فاح منه النتن الوبيء فسائل
عارفيه بأي خزي باء

فارق الأوج هاوياً مثلما ألقـ
ـت في التيه فحمة سوداء

وهوت فوق رأسه شهب الأ
فق فلاقى من نارها البرحاء

○ ○ ○ ○ ○

لأبي بكر رضي الله عنه أكثر من اسم

قال عباس محمود العقاد في كتابه «عبقرية الصديق»: عرف الخليفة الأول في التاريخ بأسماء كثيرة أشهرها: أبو بكر الصديق، ويليها في الشهرة: عتيق، وعبد الله، وقيل: إنه عرف بهذه الأسماء أو الألقاب في الإسلام والجاهلية على السواء..

وعرف في الجاهلية بلقب الصديق؛ لأنه كان يتولى أمر الديات وينوب فيها عن قريش فما تولاه من هذه الديات صدقته قريش فيه وقبلته، وما تولاه غيره خذلته وترددت في قبوله وإمضائه.

وعرف بالعتيق لجمال وجهه. من العتاقة: وهي الجودة في كل شيء، وقيل: من العتق؛ لأن أمه لم يكن يعش لها ولد فاستقبلت به الكعبة وقالت: اللهم إن هذا عتيقك من النار فهبه لي. فعاش فعرف باسم عتيق.. وقيل غير ذلك. وأنه كان أحد ثلاثة أبناء هم: عتيق، ومعتق، ومعيتق. سموا بذلك تفاؤلاً بالعيش والعتق من الموت.

وقال عباس محمود العقاد: وعرف كما قيل في بعض الروايات باسم عبد الكعبة في الجاهلية، ثم عبد الله في الإسلام.

وقد سمّي في الإسلام بالصديق؛ لأنه صدَّق النبي ﷺ في حديث الإسراء، وسمي عتيق؛ لأن النبي ﷺ بشره بالعتق من النار.

ومن الجائز أنه عرف بهذه الألقاب على محملها في الجاهلية ومحملها في الإسلام ففي حياته وسيرته قبل الإسلام وبعده ما يحقق هذه التسمية، أو هذا التلقيب.



ومن الأشعار التي قيلت في أبي بكر الصديق ـ عتيق ـ ما قاله عَلَمُ الدين أيدَمُر المحيوي التركي:

فعتيق سابقهم وليس بمنكر
سَبْقُ العتيق وفضله لا يجحدُ

ذاك الذي نشأ الهدى في حجره
وجفاه فيه قريبُه والأبعد

ودعا به الإسلام أول أمره
فأجاب داعيهُ وما يتردد

قل لي بعلم فيه: أي كريمةٍ
ليست له تروى وعنه تَورّد

من شدّ بالتّصديق آزر محمد
واستقرب النبأ الذي يستبعد

من فكّ أعناقاً تغلّل خشيةً
لا نعمةٌ تجزى لهنّ ولا يد

من راش ناهضة الرسول بماله
وحنا عليه يذب عنه ويُسعد

أعطى وآثر بالكثير زمان لا
معطٍ يجود ولا قليلٌ يوجد

وروي عن أبي يحيى حكيم بن سعد قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «إن الله هو الذي سمّى أبا بكر عتيقاً، على لسان رسول الله».

○○○○○

أبو بكر الصديق..

نسبه ومولده وصفته

أبو بكر الصديق هو أول الخلفاء.. واسمه عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي.. يلتقي مع رسول الله ﷺ في مرّة.. وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم..

ولد رضي الله عنه بعد مولد النبي ﷺ بسنتين وأشهر. وهذا خلاف ما روي عن يزيد بن الأصم من أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: أنا أكبر أو أنت؟ قال: أنت أكبر وأنا أسن منك. أخرج هذا الحديث خليفة بن خياط. وقال ابن كثير: هو مرسل غريب. والمشهور خلافه.. وكان منشأ أبا بكر مكة لا يخرج منها إلا للتجارة، حيث كان ذا مال جزيل في قومه ومروءة تامة وإحسان وتفضل فيهم.

أما صفته رضي الله عنه: فقد أخرج ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال لها: صفي لنا أبا بكر. فقالت: رجل أبيض، نحيف، خفيف العارضين ـ أحنأ ـ «الأحناء الذي في ظهره انحناء يسير ـ، لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه، معروق الوجه، غائر العينين. ناتئ الجبهة عاري الأشاجع، هذه هي صفته. الأشاجع: أصول الأصابع.

.. وفي كتاب ـ صهاريج اللؤلؤ ـ لصاحبه الشيخ محمد توفيق البكري الذي أنهى نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قصيدة ذكر فيها شيئاً من مآثر أبي بكر الصديق رضي الله عنه، منها قوله:



ألا في جوار اللّه مَوْلى عهدته
يجير على الأيام إن وهصت ظلماً

له كنف يُنْمى لآل محمد
تؤم الملوك الصيد أبوابه أماً

وعلم هو اليم الذي قد تنوّرت
أواذيّهُ الورّاد فاستصغر اليما

وبطش لمن عاداه تحسب أنه
شهاب هوى في أثر عفريةٍ رجماً

وصدر هو الدهناء في الأزم فسحةً
وليلةُ سر عند أسراره كتما

وقول عريق في الفصاحة لو غدت
تساجله عربٌ إذ أصبحوا عجما

وعدل هو العدل الذي قضى به
أبو حفص الفاروق في طيبةٍ حُكما

فهذا أبي من بيت تيم بن مرّة
إلى نصد من هاشم يفرع النجما

○○○○○

أبو بكر أول من أسلم من الرجال

لقد أجمعت المراجع التاريخية وكتب السيرة على أن أبا بكر رضي الله عنه هو أول من أسلم من الرجال إذا استثنى علي بن أبي طالب رضي الله عنه استثناء يجعل أولويته من الصبية الذين دخلوا في الإسلام ولم يبلغوا السن التي تصنفهم في عداد الرجال الأشداء حيث أسلم رضي الله عنه وهو ابن سبع سنوات في إحدى الروايات التي ذكرت إسلامه.

ولقد اقتضب جلال الدين السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» أخبار إسلام أبي بكر رضي الله عنه.. والأحاديث التي اشتملت عليها.. اقتضاباً جيداً استفاد منه كل خلف له، ولعل عباس محمود العقاد واحداً من الذين أخذوا الكثير عن السيوطي واستعانوا به في فهم الشخصيات التي ضمها كتاب «تاريخ الخلفاء»، ويظهر هذا واضحاً في عبقرياته.

ومما يستدل به على أن أبا بكر رضي الله عنه هو أول من أسلم ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: أول من أسلم من الرجال أبو بكر.

وما روي عن زيد بن الأرقم أنه قال: أول من صلى مع النبي ﷺ أبو بكر الصديق.

وكيف لا يكون أبو بكر رضي الله عنه أول من أسلم وهو صديق النبي ﷺ في جاهليته، وما كان يعرف عنه كذباً أو زوراً أو خيانة. كما روى ذلك ميسرة في حديث أخرجه البيهقي.

وفي هذه الأولوية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقةٍ
فاذكُر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا

الثاني التالي المحمود شيمته
وأول الناس طرّاً صدق الرسلا

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد
طاف العدو به إذْ صعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا
من البرية لم يعدلْ به رجلا

خير البرية أتقاها وأرأفها
بعد النبي وأوفاها بما حملا

عاش حميداً لأمر اللّه متّبعاً
بأمر صاحبه الماضي وما انتقلا

وأتصور وأنا أقرأ البيت التالي بأن الشاعر قد استوحى عند صياغته جزء من عدل أبي بكر رضي الله عنه:

يقوم بحكم اللّه بين عباده
ويصدع بالحق المبين ويفصل

OOOOO

دور أبي بكر رضي الله عنه في الهجرة

حينما عقد العزم عليه الصلاة والسلام على الهجرة من مكة إلى المدينة. أخذ أبو بكر رضي الله عنه يعدّ العدة لذلك بجهده وماله، لأنه رضي الله عنه كان ينوي طلب الصحبة من الرسول عليه الصلاة والسلام.. وحينما أذن الله لرسوله بالهجرة، أعلم عليه والسلام أبا بكر بذلك فطلب رضي الله عنه من النبي الصحبة، فقال له الرسول: «الصحبة»، أي لا مانع من مصاحبتي. فسرّ بذلك سروراً أبكاه.. قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما شعرت قط قبل اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي.

.. ولقد أضافت هذه الصحبة إلى مميزات أبي بكر ميزة لا تقاس ولا تقارن بما لأصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام من أفعال.. ففيما أخرجه البيهقي عن ابن سيرين أنه قال: ذكر رجال على عهد عمر رضي الله عنه، فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنهما، فبلغ ذلك عمر فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر. لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه.. حتى فطن رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا بكر مالك تمشي ساعة خلفي، وساعة بين يدي؟ فقال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فقال ﷺ: «يا أبا بكر لو كان شيء، لأحببت أن يكون بك دوني؟». قال: نعم، والذي بعثك بالحق. فلما انتهيا إلى غار ثور قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار، فدخل فاستبرأه. حتى إذا كان.. ذكر أنه لم يستبرئ الجحرة. قال: مكانك يا رسول الله. فنزل فاستبرأ الجحرة. ثم قال: يا رسول الله انزل. فنزل. ثم قال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير

من آل عمر.. ويتوج ﷺ صحبة أبي بكر له ومواقفه المشرفة بقوله عليه الصلاة والسلام المروي عن علي رضي الله عنه: «رحم الله أبا بكر، زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً من ماله».

وقد سجل أبو بكر رضي الله عنه جانباً من أحداث تلك الهجرة في قصيدة له، منها قوله:

قال النبي - ولم أجزع - يُوَقّرني
ونحن في سُدَفٍ من ظلمة الغار

لا تخشى شيئاً فإن اللّه ثالثنا
وقد توكّل لي منه بإظهار

وإنما كيد من تخشى بوادره
كيدُ الشياطين كادته لكفار

واللّه مهلكهم طُرّاً بما كسبوا
وجاعل المنتهى منهم إلى النار

وأنت مرتحل عنهم.. ومرتحل
إما غدوّاً وإما مدلج سار

وهاجر أرضهم حتى يكون لنا
قوم عليهم ذوو عز وأنصار

حتى إذا الليل وارتنا جوانبه
وسُدّ من دون من نخشى بأستار

سار الأريقط يهدينا وأينقه
يَنْقبْن بالقوم نقباً تحت أكوار

والأريقط هو هادي النبي ﷺ إلى المدينة.. وبقية القصيدة في «البداية والنهاية» و«الروض الآنف».

أبو بكر يذكر في شعره شيئاً من أحداث الهجرة

تجمع المراجع التاريخية ومنها «حياة الصحابة» أن الخطوة الأولى في طريق الهجرة كانت ليلاً وأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عمد إلى فراش النبي ﷺ فرقد عليه، أما النبي ﷺ فاتجه هو وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور وبقيا فيه.. وعندما علم المشركون بخروج رسول الله ﷺ انطلقوا في طلبه وعلى أثره فصاروا يحومون حول الغار. ولكن الله أعمى أبصارهم وجعل أسباباً تمنعهم من دخول الغار والتوغل فيه إذ نسجت العنكبوت خيوطاً على بابه، وباضت الحمامة فوق مدخله مما لا يدع مجالاً للشك في أن بداخله أحداً.. وحينما رآهم أبو بكر يقتربون من الغار أبدى تخوفاً، فقال له النبي ﷺ: «لا تخف إن الله معنا». واقترب أحد المشركين من الغار، فقال أبو بكر: يا رسول الله إنه ليرانا فقال: «كلا، إن ملائكة تسترنا بأجنحتها»، فجلس ذلك الرجل فبال بواجهة الغار فقال ﷺ: «لو كان يرانا ما فعل هذا».

ويكاد يجمع الرواة على أن النبي وصاحبه مكثا في الغار يومين وليلتين، ثم انطلاقا وجعلا طريقهما على الساحل وبرفقتهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يحديهما ويخدمهما ويعينهما يردفه أبو بكر ويعقبه على راحلته. وابن الأريقط استأجراه هادياً لهما وهو من بني عبد بن عدي كان حليفاً لقريش في بني سهم من بني العاص بن وائل.. وكان أبو بكر رجلاً معروفاً في الناس. فإذا لقيه لاق فيقول لأبي بكر: من هذا معك، فيقول: هاد يهديني يريد الهدي في الدين، ويحسب الآخر دليلاً.. ولما بلغ سراقة بن مالك أنهما يسيران على طريق الساحل خرج في أثرهما يريد صدهما وقتالهما.. وقصة سراقة مشهورة، وكيف

أن قوائم فرسه ساخت في الأرض حينما اقترب منهما، فلم تستطع التقدم ولا التأخر.

وقد أشار أبو بكر في شعره الذي صَوّر فيه جانباً من تلك الهجرة إلى الأريقط الذي هداهما الطريق وإلى سراقة وفرسه، فقال عن الأريقط:

سار الأريقط يهدينا وأينقه
ينقبن بالقوم نقباً تحت أكوارِ

وعن موقف سراقة حينما رأى فرسه قد ساخت قوائمها يقول:

فهيل لما رأى أرساغ مُغْرِبه
قد سُخْن في الأرض لم يحفر بمحفارِ

فقال: هل لكم أن تطلقوا فرسي
وتأخذوا موثقي في نُصح أسرار

وأصرف الحيّ عنكم إن لقيتهم
وأن أُعوّر منهم عين عُوّار

فادعوا الذي هو عنكم كف عورتنا
يُطلق جوادي وأنتم خير أبرار

فقال قولاً رسول اللّه مبتهلاً
يا رب إن كان منه غير إخفار

فنجّه سالماً من شرّ دعوتنا
ومُهْرَه سالماً من كُلْم آثار

فأظهر اللّه إذ يدعو حوافره
وفاز فارسه من هول أخطار

أبو بكر مثال في التواضع والإنفاق

لقد حقق المهتمون بدراسة سير الخلفاء مثالية أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الإنفاق.. فذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» وغيره أن أبا بكر أنفق في سبيل الله يوم أسلم أربعين ألفاً مع ما كسب من التجارة.. وأنه أعتق سبعة نفر كلهم يعذب في الله تعالى، منهم: بلال، وعامر بن فهيرة، وزنيرة، والنهدية وابنها، وجارية بني مؤمل وأم عبيس..

وكان رضي الله عنه يشتري الأكسية ويفرقها في الأرامل في الشتاء.. ويروي ابن الأثير وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعهد امرأة عمياء في المدينة بالليل فيقوم بأمرها، فكان إذا جاء وجد غيره قد سبقه إليها ففعل ما أرادت فرصده عمر فإذا هو أبو بكر. كان يأتيها ويقضي أشغالها سراً، وهو خليفة. فقال له: أنت هو لعمري. وذكر أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الرقي الحنبلي في كتابه «أحاسن المحاسن» شيئاً من تواضع أبي بكر الصديق، فقال: كان رضي الله عنه يحلب للحي أغنامهم فلما بويع قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منائح دارنا، فسمعها، فقال: بلى لأحلبنّها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت فيه، فكان يحلب لهم.

.. وأراد النبي ﷺ أن يضم إلى المسجد حائطاً ليتيمين من الأنصار كانا في كفالة أسعد بن زرارة. وقيل: معاذ بن عفراء وهما: سهل، وسهيل. وقد عرض أبو أيوب الأنصاري أن يؤدي الثمن إليهما فأبى النبي، وابتاع الحائط بعشرة دنانير أديت من مال أبي بكر الصديق.



وروى السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» فقال: قال ابن الجوزي: أجمعوا على أن قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾، قد نزل في أبي بكر..

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر». فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟.

.. قال ابن كثير: وروي أيضاً من حديث علي وابن عباس، وأنس، وجابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم. وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرسلاً. وزاد: وكان رسول الله ﷺ يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه.

وقد نظم الشاعر المرحوم أحمد محرم قصة الحائط الذي تقدم ذكرها في قصيدة قوامها ثمانية عشرة بيتاً عنوانها: «أبو بكر يؤدي ثمن الحائط الذي أدخل في المسجد»، منها قوله:

إيه أبا بكر ظفرت بصفقة
شتى مغانمها لمن يتأمل

القوم عند إبائهم وسخائهم
لو يبذلون نفوسهم لم يحفلوا

لا يقبلون لحائط ثمناً ولا
يبغونها دنيا تذم وتُرْذَل

اللّه يطلبه لنصرة دينه
والدين هم أنصاره ما بدّلوا

قالوا آمنّا يا محمد يبتغي
ما ليس يخلق بالأباة ويجمل

إنـا لـعـمـر الـلّـه نـعـرف حـقـه
ونـعـزّ مـلـتـه الـتـي نـتـمـلـل

نعطي اليتيمين الكفاء وإنْ هما
أبـيـا ونَـتّـبـع الـتـي هـي أنـبـل

خذ ما أرادت فلن نبيعك مسجداً
يـدعـوه فـيـه مـكـبـر ومـهـلـل

o o o o o

جانب من حياة أبي بكر البيتية

كل شخص له حياة عامة، وحياة خاصة؛ فالحياة العامة تختلف من شخص إلى آخر وفقاً للمفاهيم والقيم التي يمارسها كل شخص. فهناك من تكون حياته العامة كلها كفاح وعمل وجهاد في سبيل الله ونشر الفضيلة، والسعي لما فيه المصلحة العامة التي يرضى بها عنه الناس وينال من الله عليها أجراً ومثوبة.. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه لا يضرب به المثل في هذا؛ لأنه قد ارتفع بفعله وعمله وسلوكه وصدق إيمانه وإخلاصه إلى ما ليس يستطيع فعله أحد، كيف لا والنبي ﷺ يقول عنه في الحديث الذي رواه أبو داود: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبي»..

ومن كانت هذه صفة حياته العامة فإن حياته الخاصة ـ وأعني بحياته الخاصة ـ حياته في بيته وبين أسرته ومع أهله، لا بد أن تكون مثالية.

ولقد استمد عباس محمد العقاد مادة كتابه «عبقرية الصديق» الشيء الكثير مما حقق عن سيرته رضي الله عنه مع أهله وأبنائه.. من ذلك ما أشار إليه بقوله:

وعرف عطف الصديق على أبنائه طوال حياته. فما داخلته في عطفه عليهم قسوة أو شدة إلا أن يكون ذلك بدافع من العقيدة أو وازع من التأديب.

قال له بعض أبنائه ـ وقد كان يقاتل مع المشركين ـ: إنني كنت أراك فأتحاماك. فقال له: لكنني لو رأيتك لما تحاميتك.

وكان لصدق شعوره بالأبوة.. يحس ما يحتاج إليه الوليد في نشأة الطفولة ويزوده بتلك الحاجة ولو أغضب الأباء، وهم عنده أصدق

الأصدقاء. أما حياته الزوجية فقد ذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» أنه تزوج في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى بن عامر بن لؤي فولدت عبد الله وأسماء.. وتزوج أيضاً في الجاهلية أم رومان.. واسمها دعد بنت عامر بن عميرة الكنانية، فولدت له عبد الرحمن وعائشة. وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب فولدت له محمد بن أبي بكر، وتزوج أيضاً في الإسلام حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصاري فولدت له بعد وفاته أم كلثوم.. ويذكر محمد توفيق البكري هذا البيت الطاهر في قصيدة، وله منها قوله:

أيقطر هذا الدمع كالشمع أو أحمى
ويصبح هذا الهم كالسهم أو أصمى

وتخشع نفسي كلما شمت باللوى
قبور بني الصديق إذ رفعت ثمَّا

وقرن بأكناف البطاح كأنها
يلملم أو ثهلان أو جبلا سلمى

وإما تراءت هيلت النفس عندها
قشعريرةً للْهَيْبِ أو وجمت وجما

أهيل على مثل الغوالي ترابها
ووارت لدى أطباقها الدين والعلما

إذا ما تبدّى الدجن يحبو كأنما
تعلق لج البحر أردانه السُّحما

ويضحك في خيطانه البرق موهنًا
كما ضحك الباكي إذا أكبر الهما

فحيًّا الحيا تلك القبور فطالما
سقى أهلها الظمآن من فضلهم نعمى

من أقوال أبي بكر رضي الله عنه

لقد امتلأت كثير من كتب التراث الإسلامي بأقوال مأثورة لأبي بكر الصديق ونصوص كلها حكمة وأحكام.. من ذلك ما اختاره الثعالبي في كتابه «الإعجاز والإيجاز» كقوله رضي الله عنه: صنائع المعروف تقي مصارع السوء. الموت أهون ما قبله وأشد ما بعده.. ولما بلغه رضي الله عنه أن الفرس ملكت عليها بنت أبرويز قال: ذلّ قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة. وذكر الشوكاني في كتابه «در السحابة»، والسيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»، وغيرهما أقوالاً كثيرة للصديق رضي الله عنه، منها قوله عند صلاته على الميت: اللهم عبدك أسلمه الأهل والمال والعشيرة، والذنب عظيم، وأنت غفور رحيم.

وفي رواية أن عمر اطّلع على أبي بكر وهو آخذ لسانه فقال: هذا الذي أوردني الموارد.

وذكر أنه رضي الله عنه مرّ بعبد الرحمن بن عوف وهو يماظُّ جاراً له، فقال له: لا تماظّ جارك، فإنه يبقى ويذهب عنك الناس. «المماظة: المنازعة والمخاصمة».

وعن أبي عبيد أن أبا بكر قال: طوبى لمن مات في النأنأة؛ أي في أول الإسلام قبل تحرك الفتن.

وعن قتادة قال: بلغني أن أبا بكر قال: وددت أني خَضِرَةٌ تأكلني الدواب.

وعن القاسم بن محمد أن رجلاً من أهل اليمن أقطع اليد قدم فنزل على أبي بكر، فشكا إليه أن عامل اليمن ظلمه، فكان يصلي من الليل، فيقول أبو بكر: وأبيك ما ليلك بليل سارق. ثم أنهم افتقدوا حلياً لأسماء بنت عميس امرأة أبي بكر، فجعل يطوف معهم، ويقول:



اللهم عليك بمن بيّت أهل هذا البيت الصالح. فوجدوا الحلي عند صائغ زعم أن الأقطع جاءه به، فاعترف الأقطع أو شهد عليه، فأمر أبو بكر فقطعت يده اليسرى، وقال أبو بكر: والله لدعاؤه على نفسه أشدُّ عندي عليه من سرقته. وكان رضي الله عنه يستشهد بالكلام الحسن سواء كان نثراً أم شعراً وقد ذكر صاحب كتاب «أنوار الربيع في أنواع البديع» أنه رضي الله عنه أنشد شعراً لقس بن ساعدة الأيادي هو:

في الذاهبين الأوّلـ
ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليَّ
ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا
لة حيث صار القوم صائر

ولغيره فيه رضي الله عنه أقوال حميدة وأشعار سديدة، منها هذه الأبيات لمحجن الثقفي:

وسميت صديقاً وكل مهاجر
سواك يسمى باسمه غير مُنكَر
وبالغار إذ سميت بالغار صاحبا
وكنت رفيقاً للنبي المطهر
سبقت إلى الإسلام واللّه شاهد
وكنت جليساً بالعريش المشهر

أبو بكر يحذر كفار ومشركي قريش.. شعراً

لقد أنذر وحذر أبو بكر رضي الله عنه كفّارَ ومشركي قريش من تماديهم في عدم الاستجابة لقبول دعوة محمد ﷺ، والإيمان ببعثته، والشهادة له بالرسالة.. وذمهم ذماً شديداً فيه تذكير لهم بسوء مآلهم وخسران منقلبهم إن هم أقاموا على إصرارهم على مجابهة المسلمين ومعاندة الدين. وذلك في أبيات قوامها خمسة عشر بيتاً أوردها الأزدي في كتابه «العمدة» وابن هشام في سيرته.. إلا أنه حصل لديه شك في نسبتها إلى أبي بكر رضي الله عنه، حيث قال ابن هشام: «وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لأبي بكر رضي الله عنه.. أما الأزدي فقد قال: قال السهيلي: «ويشهد بصحة من أنكر أن تكون له - أي لأبي بكر - ما روى عبد الرزاق عن عمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كذب من أخبر أن أبا بكر قال بيت شعر في الإسلام».

ولقد استهلت القصيدة ببيت غزلي، وهذه هي طريقة شعراء ذلك العصر الذي كثيراً ما يصدرون قصائدهم إما بذكر الأطلال أو بالتغزل. وذلك بقوله:

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث
أرقت أو أمرٍ في العشيرة حادث

ومنها يقول:

ترى من لؤي فرقة لا يصدها
عن الكفر تذكير ولا بعث باعث

رسـول أتـاهـم صـادقٌ فـتـكـذّبـوا
عـلـيه وقـالـوا: لـسـت فـيـنـا بـمـاكـث

إذا مـا دعـونـاهـم إلـى الـحـق أدبـروا
وهـرُّوا هـريـر الـمـجـحـرات الـلـواهـث

فـإن يـرجـعـوا عـن كـفـرهـم وعـقـوقـهـم
فـمـا طـيِّـبَـات الـحـل مـثـل الـخـبـائـث

وإن يـركـبـوا طـغـيـانـهـم وضـلالـهـم
فـلـيـس عـذاب الـلّـه عـنـهـم بـلائـث

لأن لـم يـفـيـقـوا عـاجـلاً مـن ضـلالـهـم
ولـسـت إذا آلـيـت قـولاً بـحـانـث

لـتـبـتـدرنّـهـم غـارةٌ ذاتُ مـصـدق
تُـحـرّم أطـهـار الـنـسـاء الـطـوامـث

○ ○ ○ ○ ○

من المؤهلات التي جعلت أبا بكر أفضل الصحابة

والمواقف التي أهَّلت أبا بكر رضي الله عنه بأن يكون أفضل الصحابة أكثر من أن تحصى. فمن ذلك ما روي عن محمد بن عبد الرحمن التميمي أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر، ما عتم عنه حين ذكرته وما تردد فيه». عتم: أي لبث.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يجبأه وهذا يتلتله. وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله، ثم رفع عليّ بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال: أنشدكم الله. أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم. فقال: ألا تجيبونني؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون. ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عمر صعد المنبر، ثم قال: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر. فمن قال غير هذا فهو مفتر، عليه ما على المفتري.

وعن ابن أبي ليلى أيضاً قال: قال: لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري.

وروي عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبي»، وفي لفظ:



«على أحد من المسلمين بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر».

.. وروى الطبراني عن سعد بن زرارة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس جبريل أخبرني أن خير أمتك بعدك أبو بكر». وتلك شهادة من خير البرية أهلته رضي الله عنه للأفضلية.

ومما ذكره الشعراء في صدق أقواله وأفعاله وأماله مع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هذه الأبيات التي اقتطفتها من قصيدة طويلة لعلم الدين أيدَمُر المحيوي:

سل محكم التنزيل أعدل شاهد
عنه وعن أيامه فسيشهد

وصلتْ يداه جناح - أحمد - إذ غدا
من قومه حَردٍ - ليثرب - يقصد

آساه فهو رفيقه - وكفاه فهـ
ـو معينه - وهداه فهو المرشد

وأنيسه في الغار والفادي له
بالنفس حين يجوسه ويمهد

وأخوه في الإسلام إذ لم يتخذ
خلًّا وصاحبه الأود الأوكد

وإليه أفضي بالخلافة بعده
فمضى وقلّده الذي يتقلد

فمشى على آثاره متتبعاً
لا قاصرٌ عنها ولا متزّيد

فقد النبيَّ المسلمون وساسهم
صديقه فكأنهم لم يفقد

أبو بكر يأتي بأبيه عثمان
إلى النبي ليعلن إسلامه

حينما دب الإسلام في عروق ودم ذلك الشيخ المسن عثمان بن أبي قحافة وتغلغل في صدره واستقر في قلبه ورغب أن يعلن إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ فرح أبو بكر الصديق رضي الله عنه بذلك فرحاً شديداً.

وبينما الرسول ﷺ في يوم من الأيام جالس في المسجد والناس من حوله، ذهب أبو بكر رضي الله عنه وجاء بأبيه عثمان، ويكنى بأبي قحافة يقوده وقد كف بصره، فلما رآه الرسول ﷺ قال لأبي بكر: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه؟»، قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه.. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن أجلسه بين يديه ومسح صدره وقال له: «أسلم تسلم». ففعل عثمان، وأعلن إسلامه. فهنأ النبي أبا بكر بإسلام والده، فقال أبو بكر مخاطباً النبي ﷺ: والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر لعيني من إسلامه، يقصد عم النبي ﷺ؛ لأن لأبي طالب على النبي فضل كبير، فهو الذي قام بولايته وكفالته في صغره وكف أذى المشركين عنه يوم أعلن دعوته.

ولقد نظم الشاعر أحمد محرم هذه القصة في قصيدة، منها هذه الأبيات:

شيخ يقاد إلى النبي على يد
هي للنبي إذا رمى أعلى يد



هـذا أبـو بـكـر يـقـدّم شـيـخـه
يـهـديـه إن الألـمـعـي لـيـهـتـدي

قـال الـنـبـيُّ ألا رثـيـت لـضـعـفـه
وتـركـتـه فـي داره لـم يـجـهـد

لـو لـم يجئْ لـمشـيـت أشـهـد أمـره
وأجـلـه شـيـخـاً كـريـم الـمـشـهـد

يـا والـد الـصـديـق خـذهـا نـعـمـة
سيـقـت إلـيـك مـن الـنـبـي مـحـمـد

ومنها :

مـن كـان يـسـعدُ فـي الـرجـال بـوالـد
فـبـمـن وَلَـدتَ أبـا قـحـافـة فـاسـعـد

ومنها :

قـال الـنـبـي أهـنـأ. فـقـال وددتـهـا
كـانـت لـعـمـك ذي الـفـعـال الأمـجـد

هـذا هـو الإيـثـار. فـاعـجـب واعـتـبـر
وأعـدْ عـلـى الـدهـر الـحـديـث وردّد

○○○○○

أسيرة من سَرِيّة أبي بكر
يفدي بها النبيّ أسارى المسلمين

في شهر شعبان من السنة السابعة للهجرة وجه رسول الله ﷺ سرية بقيادة أبي بكر الصديق إلى بني فزارة بناحية «هزيَّة» بنجد حققت انتصاراً وجاءت بأسرى.. قال إياس بن سلمة: حدثني أبي قال: خرجنا مع أبي بكر بن أبي قحافة وأمّره رسول الله ﷺ علينا. فغزونا بني فزارة فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعَرّسنا. فلما صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة فقتلنا على الماء من مرّ قبلنا. قال سلمة بن الأكوع: ثم نظرتُ إلى عنق من الناس فيه من الذرية والنساء نحو الجبل، وأنا أعدو في آثارهم فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم فوقع بينهم وبين الجبل. قال: فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر حتى أتيته على الماء وفيهم امرأة من فزارة عليها قشع من آدم ومعها ابنة لها من أحسن العرب. قال: فنغلني أبو بكر ببنتها. قال: فما كشف لها ثوباً حتى قدمت المدينة ثم بت فلم أكشف لها ثوباً. قال: فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال لي: «يا سلمة هب لي المرأة»، قال: فقلت: والله يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً. قال: فسكت رسول الله ﷺ وتركني حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: «يا سلمة هب لي المرأة». قال: فقلت: يا رسول الله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً. قال: فسكت رسول الله ﷺ وتركني حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: «يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك». قال: قلت: يا رسول الله، والله ما كشفت لها ثوباً وهي لك يا رسول الله. قال: فبعث بها رسول الله إلى أهل مكة وفي أيديهم أسارى من المسلمين ففداهم رسول الله ﷺ بتلك المرأة.

وقد نظم أحمد محرم قصيدة ضمنها وقائع سرية أبي بكر وقصة المرأة التي تقدم ذكرها، منها قوله:

جرد السيف أبا بكر فما
طُبع السيف ليبقى مغمدا

وقوله:

فارم يا ابن الأكوع القوم فما
خلق المخلب لليث سدى

وقوله:

يا أبا بكر وأنت المرتجى
أعطه المرأة يشكرها يدا

إن تكن سيدة في قومها
فكفاها أن أصابت سيدا

عاد منصوراً وسارت معه
فرقداً يتبع منه فرقدا

نظر اللّه إليها فبدا
لرسول اللّه فيها ما بدا

قال: هبها لي فلم يبخل بها
ومضى من أمرها ما سددا

هبطت مكة في حاجته
فهي للصحب من الأسر فِدى

○○○○○

موقف أبي بكر من الردة

عندما توفي رسول الله ﷺ تسابق كثير من القبائل في الجزيرة، باديةً وحاضرةً إلى الردة، فكان لا بدّ من رأي يعالج هذه الظاهرة التي ربما تعود بأصحابها إلى جاهلية تقضي إلى الخروج عن الطاعة التي أوجدها الإسلام، فكانت المشورة مع الخليفة الأول أبي بكر الصديق في أمر أولئك.. فرأى بعض الصحابة أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة، ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم، ثم هم بعد ذلك يزكّون.. قال ابن كثير: فامتنع الصديق من ذلك وآباه. وعن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر: علام تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لو منعوني عناقاً ـ وفي رواية: عقالاً ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنّهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلنّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة. قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال. فعرفت أنه الحق.

وتصميم أبي بكر على تنفيذ جيش أسامة بن زيد الذي عقده النبي ﷺ ومات قبل أن يسيّره حقق نتائج إيجابية قبل انتصاره على الروم، حيث كان لمسيرته أثر نفسي فيمن رآه أو سمع به من المرتدين، فقد روي أنه عندما توجه جيش أسامة جعل لا يَمُرُّ بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم. ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام. وقد كان من بين جند أسامة عمر بن

الخطاب، فاستطلق الصديق من أسامة عمر بن الخطاب فأطلقه له. فكان عمر لا يلقى زيداً إلا قال: السلام عليك أيها الأمير.

وفي هذه العزمة المباركة من أبي بكر على قتاله المرتدين قال عَلَمُ الدين أيدَمر المُحْيَوي قصيدة، منها قوله:

ورأى ذوو الإسلام أصوب رأيهم
أن لا تُمَدّ إلى نزاعهم يد

حذراً على سرح الهدى من ذاعرٍ
إن هيج لم يؤمن عليه تشرد

فأبت متانة عزمه ويقينه
أن يسْتَقيد لمن ثناه تقيد

ورأت حميَّته لدين محمدٍ
إن الهوادة فيه ليست تحمد

فسطا بسيف اللّه يضربهم به
ضرباً يُقرّ به الهدى ويوطد

حتى استقاموا مذعنين لأمره
وبدا لجائرها الطريق الأقصد

فقضى مآرب سيفه حتى إذا
رشد الغويُّ وأذعن المتمرد

عطفتْ إلى الروم الأسنة شُرّعاً
عزمات أروع زنده لا يصلد

○ ○ ○ ○ ○

الأخباث..
اسم أطلقه أبو بكر على المرتدين من عك

قاتل أبو بكر رضي الله عنه المرتدين قتالاً ضارياً لا هوادة فيه، وقد وقف رضي الله عنه في وجوه المرتدين وقفة لا تقاس صلابتها بأي صلابة، وذلك انتصاراً لدين الله، وامتثالاً لسنّة رسول الله.

ذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» وغيره.. أنه لما توفي رسول الله ﷺ ارتد أناس عن دين الله، فكتب عتاب بن أسيد وهو أمير على مكة إلى أبي بكر يعرفه خبر من ارتد في عمله، وبعث عتاب أخاه خالداً إلى أهل تهامة، وبها جماعة من مدلج وخزاعة وأبناء كنانة فقاتلهم خالد وفرّقهم.

وكان الطاهر بن أبي هالة أميراً على عك والأشعريين، وكان أول منتقض ومرتد في تهامة بعد وفاة الرسول ﷺ جماعة من العك ومن الأشعريين فأقاموا على الأعلاب «طريق الساحل»، فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق وقومه من عك ممن لم يرتدوا.. فالتقوا على الأعلاب فانهزمت عك ومن معهم، وقاتلوا قتالاً ذريعاً وكان ذلك فتحاً عظيماً.

وذكر ابن الأثير أنه ورد كتاب أبي بكر على الطاهر بن أبي هالة يأمره بقتالهم وسمّاهم الأخباث، وسمى طريقهم طريق الأخباث، قال ابن الأثير: فبقي الاسم عليهم إلى الآن.

وفي ذلك يقول الطاهر بن أبي هالة واصفاً مقاتلته للأخباث، وذاكراً الأماكن التي وقع فيها القتال:

ووالـلّـه لـولا الـلّـه لا شـيء غـيـره
لـما قضى بالإجراع جمع العثائث

فـلـم تـر عـيـني مثـل يـوم رأيـتـه
بجنب صحار في جموع الأخابث

قـتـلـنـاهـم مـا بـيـن قـنـة خـامـر
إلى القيعة الحمراء ذات النبائث

وفـئـنـا بـأمـوال الأخـابـث عـنـوة
جهاراً ولم نحفل بتلك الهثاهث

ولأبي بكر رضي الله عنه قصيدة استشهدت بها لموضوع سابق عنوانه: «أبو بكر يحذر كفار ومشركي قريش.. شعراً» ولارتباطها بغيرة أبي بكر على حدود الله ولموافقتها لمضمون وقافية أبيات الطاهر بن أبي هالة أورد منها الأبيات التالية:

فـأولـى بـرب الـراقـصـات إلـى مـنـى
حراجيج تخذي في السريح الرثائث

لأن لـم يفيقوا عاجلاً من ضلالهم
ولـسـت إذا آلـيـت قـولاً بـحـانـث

لـتـبـتـدرنـهـم غـارة ذات مـصـدق
تـحـرم أطـهـار الـنـسـاء الـطـوامـث

فـأبـلـغ سـهـم لـديـك رسـالـة
وكـل كـفـور يـبـتـغي الـشـر بـاحـث

○○○○○

مما قاله أبو بكر رضي الله عنه قبيل وفاته

قال سعيد بن المسيب: لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه أناس من الصحابة فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ زودنا، فإنا نراك لما بك، فقال أبو بكر رضي الله عنه: من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين، قالوا: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاها كل يوم مائة رحمة، فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان:

«اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة لك بهم ثم جعلتهم فريقين، فريقاً للنعيم وفريقاً للسعير فاجعلني للنعيم، ولا تجعلني للسعير، اللهم إنك خلقت الخلق فرقاً وميزتهم قبل أن تخلقهم، فجعلت منهم شقياً وسعيداً، وغوياً ورشيداً، فلا تشقني بمعاصيك، اللهم إنك علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك، اللهم إن أحداً لا يشاء حتى تشاء، فاجعل مشيئتك إن أشاء ما يقربني إليك، اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك فاجعل حركاتي في تقواك، اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عملاً يعمل به فاجعلني من خير القسمين، اللهم إنك خلقت الجنة والنار، وجعلت لكل واحدة منها أهلاً فاجعلني من سكان جنتك، اللهم إنك أردت بقوم الضلال، وضيقت به صدورهم فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقربني إليك زلفى.

اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتي ورجائي،

ولا حول ولا قوة إلا بالله»، قال أبو بكر: هذا كله في كتاب الله عزَّ وجلَّ.

ولما توفى عَمَّ الحُزْنُ عليه المملكة الإسلامية وتسابق الشعراء في رثائه، ومنهم خفاف بن ندبة بن عمر بن الحارث بن الشريد بن رباح السلمي الذي قال في رثائه:

ليس لشيء غير تقوى اللّه جداء
وكل شيء عمره للفناء

والملك في الأقوام مستودع
عارية فالشرط فيه الأداء

إن أبا بكر هو الغيث إذْ
لم تشمل الأرض سحاب بماء

باللّه لا يدرك أيامه
ذم طرّة حاف ولا ذو حذاء

من يَسْعَ كي يدرك أيامه
يجتهد الشدّ بأرض فضاء

المرء يسعى وله راصد
تنذره العين وثوب الضراء

يهرم أو يقتل أو يقهره
يشكوه سقم ليس فيه شفاء

المعطى الجرد بأرسانها
والناعجات المسرعات إلى النجاء

ooooo

وفاة الصديق وشيء من رثائه

ذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» وابن جرير في «تاريخه» والطبري وابن كثير في «البداية والنهاية» وغيرهم: إن أبا بكر الصديق والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة أهديت لأبي بكر، ـ والخزيرة: لحم يقطع قطعاً صغيرة، ويصب عليه الماء حتى إذا نضج ذر عليه دقيق ـ، فقال الحارث لأبي بكر: ارفع يدك يا خليفة رسول الله، والله إن فيها لسمّ سنة، وأنا وأنت نموت في يوم واحد، فرفع يده، فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد عند انقضاء السنة.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان أول بدء مرضه رضي الله عنه أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة، وكان يوماً بارداً، فحم خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة، وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة، وله ثلاث وستون سنة.

وعن عائشة رضي الله عنها أنه لما حضرته الوفاة قال رضي الله عنه: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم الاثنين، قال: فإن متُّ من ليلتي فلا تنتظروا بي لغد فإنَّ أحب الأيام والليالي إليّ أقربها من رسول الله ﷺ، وروي عن عروة أن أبا بكر أوصى بِخُمُسِ ماله، وقال: آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين.

وأوصى رضي الله عنه أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمٰن وأن يكفن في ثوبيه ويشترى معهما ثوب ثالث. . وقال: الحي أحوج إلى الجديد من الميت إنما هو للمهنة والصديد.

وفي رواية لعائشة أنه قال لها: اغسلي ثوبيَّ هذين وكفنيني بهما فإنما أبوك أحد رجلين: إما مكسو أحسن الكسوة، أو مسلوب أسوأ السلب.

كان آخر ما تكلم به رضي الله عنه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، وصلّى عليه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله ﷺ وحمل على السرير الذي حمل عليه النبي ﷺ، وألصق لحده بلحد النبي، وجعل رأسه عند كتفي النبي، وجعل قبره مثل قبر النبي مسطحاً رضي الله عنه، وممن رثاه خفف بن ندبة السلمي وذلك بقوله:

ليس لحيّ فاعْلَمَنْهُ بقا
وكل دنيا أمرها للفنا

والملك في الأقوام مستودع
عارية فالشرط فيه الإدا

والمرء يسعى وله راصد
تندبه العين ونار الصدا

يهرم أو يقتل أو يقهره
يشكوه سقم ليس فيه شفا

إنَّ أبا بكر هو الغيث إن
لم تزرع الجوزاء بقلا بما

للمجد في منزله باديا
حوض رفيع لم يخنه الإزا

واللّه لا يدرك أيامه
ذو مئزر ناش ولا ذو ردا

من يَسْعَ كي يدرك أيامه
مجتهداً شدّ بأرض فضا

أبو بكر وعمر هما أفضل الصحابة

إن ثبوت أفضلية أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على سائر الصحابة يأتي بشهادة أفضل الخلق - صاحبها ﷺ - ففيما روي عن عائشة أنه قال: «الناس كلهم يحاسبون إلا أبا بكر»، وفيما روي عن عقبة بن عامر أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب».

أما الأحاديث التي وردت قارنة فضل أبي بكر وعمر عما سواهما فكثيرة، وقد أفرد لها السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»، والشوكاني في كتابه «دُرّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة» رحمهما الله فصولاً كفت الباحث عناء البحث عن تلك الأحاديث الشريفة التي منها:

فمن حديث عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه فكلمته فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكني خلقت للحرث.. قال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم؟ قال النبي ﷺ: فإني أؤمن بذلك وأبو بكر وعمر، وما ثمّ أبو بكر وعمر»، أي لم يكونا في المجلس، شهد لهما بالإيمان بذلك لعلمه بكمال إيمانهما.

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل.. وأما وزيراي من أهل الأرض، فأبو بكر وعمر».

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم فدخل المسجد



وأبو بكر وعمر أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، وهو آخذ بأيديهما، وقال: «هكذا نبعث يوم القيامة».

وعن أبي أروى الدوسي قال: كنت عند النبي ﷺ جالساً فأقبل أبو بكر وعمر فقال: «الحمد لله الذي أيدني بكما».

وروي عن عبد الرحمٰن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما».

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبي خاصة من أمته، وإن خاصتي من أصحابي أبو بكر وعمر»، وعن أنس مرفوعاً: «إني لأرجو لأمتي في حبهم لأبي بكر وعمر، ما أرجو لهم في قول لا إلٰه إلا الله».

وقد ذكر أحمد بن علي بن مشرف هذين الخليفتين في قصيدة له، منها قوله:

وقام من بعده الصدِّيق مقتدياً
بهديه تابعاً للحق إذ خلفا

ما هاله ذلك الخطب الذي عظمت
فيه الخروق ولم يوهن وما ضعفا

سلّ الحسام على من زاغ حين أبوا
عن الزكاة وللخرق العظيم رفا

حتى استقام به دين الهدى وسما
وردّ من كان مرتداً ومنحرفا

وفي ثلاثة عشر مات مجتهداً
وقلّد الأمر أقواهم بغير خفا

أعني به عمر الفاروق من فتحت
به الفتوح وعزّ الدّين وانتصفا

بِعَدْلِهِ ضرب الأمثال ساكنها
ورايـة وافق التنزيل إذ وصفا

وهو الذي سلب الأملاك ملكهم
أبا كسرى وأجلى قيصراً ونفا

○ ○ ○ ○ ○

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ذكر ابن الأثير في كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وكان النبي ﷺ قد قال: «اللهم أعزّ الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»، يعني أبا جهل.

وذكر السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» ما أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم «في الحلية» عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم قال: قال لنا عمر: كنت أشد الناس على رسول الله، فبينما أنا في يوم حار بالهاجرة في بعض طريق مكة إذ لقيني رجل فقال: عجباً لك يا ابن الخطاب إنك تزعم أنك وأنك، وقد دخل عليك الأمر في بيتك. قلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد أسلمت، فرجعت مغضباً حتى قرعت الباب، قيل: من هذا؟ قلت: عمر، فتبادروا فاختفوا منّي، وقد كانوا يقرؤون صحيفة بين أيديهم تركوها ونسوها، فقامت أختي تفتح الباب، فقلت: يا عدوة نفسها أصبأت؟ وضربتها بشيء كان في يدي على رأسها، فسال الدم وبكت، فقالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل، فقد صبأت، قال: ودخلت حتى جلست على السرير فنظرت إلى الصحيفة فقلت: ما هذا؟ ناولينيها، قالت: لست من أهلها، إنك لا تطهر من الجنابة، وهذا كتاب لا يمسه إلا المطهرون، فما زلت بها

حتى ناولتنيها، ففتحتها فإذا فيها: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت فيه، فألقيت الصحيفة، ثم رجعت إلى نفسي فتناولتها فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾، فذعرت فقرأت: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فقلت: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، فخرجوا إلى الميادين وكبروا، وقالوا: أبشر فإنّ رسول الله دعا يوم الاثنين. فقال: «اللهم أعزّ دينك بأحب الرجلين إليك، إما أبو جهل بن هشام، وإما عمر».

وعن ابن مسعود قال: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً وكانت إمامته رحمة.

وعن حذيفة قال: لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قرباً، فلما قتل عمر كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعداً، وعن ابن عباس قال: أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب.

وعن أسلم مولى عمر قال: أسلم عمر في ذي الحجة من السنة السادسة من النبوة وهو ابن ست وعشرين سنة.

ويحكي عمر رضي الله عنه جانباً من قصة إسلامه وندمه على لطمه أخته فاطمة بنت الخطاب في قصيدة له يقول فيها:

الحمد لله ذي المنّ الذي وجبت
له علينا أياد ما لها غير

وقد بدأنا فكذّبنا فقال لنا
صدق الحديث نبي عنده الخبر

وقد ظلمتُ ابنة الخطاب ثم هدى
ربّي.. عشية قالوا قد صبا عمر

وقد ندمت على ما كان من زلل
بظلمها حين تتلى عندها السور





لـمـا دعـت ربَّـهـا ذا الـعـرش جـاهـدة
والـدمـع مـن عـيـنـهـا عـجلان يـبـتـدر
أيـقـنـت أن الـذي تـدعـوه خـالـقـهـا
فـكـاد يـسـبـقـنـي مـن عـبـرة دُوَر
فـقـلـت: أشـهـد أن الـلّـه خـالـقـنـا
وأن أحـمـد فـيـنـا الـيـوم مـشـتـهـر
نـبـيٌّ صـدق أتـى بـالـحـق مـن ثـقـة
وافـي الأمـانـة مـا فـي عـوده خـور

○○○○○

عهد أبي بكر بالخلافة لعمر

عَهِدَ أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة لعمر رضي الله عنه فقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها المؤمن، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برَّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه وإن جار وبدَّل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ولم أجد فيما بين يدي مما قالته الشعراء ما يسمو إلى معنى هذا العهد العظيم ولكنهم حاموا حوله.. ومن ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إذا عقد القضاء عليك أمر
فليس يحله إلا القضاء

وقال آخر:

إن الأكابر يحكمون على الورى
وعلى الأكابر تحكم العلماء

وقال:

ثناء من أمير خير كسب
لصاحب نعمة وأخي ثراء

وقال أبو العلاء المعري:

أجدر الناس بالعواقب في الرحمـ
ـة قوم في بَدْيِهم رحماء

وقال البوصيري:

إذا سخّر الإله أناساً
لسعيد فإنهم سعداء

وقال أحدهم:

كل من لا يؤاخيك في اللّـ
ـه فلا ترجُ أن يدوم إخاؤه

وقال ابن الرومي:

وظنون الذكي أنفذ في الحـ
ـق سهاماً من رؤية الأغبياء

وقال محمد بن الربيع الموصلي، ووجدته منسوباً لعلي رضي الله عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم
على الهدى لمن استهدى أدلاء

○ ○ ○ ○ ○

من الذي أطلق على عمر رضي الله عنه اسم أمير المؤمنين؟

لما توفي رسول الله ﷺ بايع الناس أبا بكر فكان أول خليفة لرسول الله، وصار يكتب: من خليفة رسول الله.. ولما توفي رضي الله عنه وآل أمر الخلافة إلى عمر رضي الله عنه صار يكتب: من خليفة خليفة رسول الله، واستمر على ذلك حتى كتب إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله، فبعث إليه لبيد بن ربيعة، وعدي بن حاتم، فقدما المدينة ودخلا المسجد، فوجدا عمرو بن العاص، فقالا: استأذن لنا على أمير المؤمنين فقال عمرو: أنتما والله أصبتما اسمه، فدخل عليه عمرو، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ما بدا لك في هذا الاسم؟ لَتَخْرُجَنَّ مما قلت، فأخبره وقال: أنت الأمير ونحن المؤمنين، فجرى الكتاب بذلك من يومئذٍ.

وذكر السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»: إن النووي قال في «تهذيبه»: سمّاه بهذا الاسم عدي بن حاتم ولبيد بن ربيعة حين وفدا عليه من العراق.. وقيل: سمّاه به المغيرة بن شعبة، وقيل: إن عمر قال للناس: أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسمّي أمير المؤمنين، وكان قبل ذلك يقال له: خليفة خليفة رسول الله، فعدلوا عن تلك العبارة لطولها.

وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن قُرّة قال: كان يكتب من أبي بكر خليفة رسول الله، فلما كان عمر بن الخطاب أرادوا أن يقولوا: خليفة خليفة رسول الله، قال عمر: هذا يطول، قالوا: لا ولكنا أمّرناك علينا فأنت أميرنا، قال: نعم، أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فكتب «أمير

المؤمنين» إلى أن توفي رضي الله عنه متأثراً بطعنات إحداها تحت سرته من خنجر سددها إليه عدو الله أبو لؤلؤة فيروز المجوسي الأصل، ورثاه الشعراء حتى الجن رثته، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إذا سركم أن يحسن المجلس فأكثروا ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم قالت: والله إنا لوقوف بالمحصب، إذ أقبل راكب حتى إذا كان قدر ما يسمع صوته قال:

أبعد قتيل بالمدينة أشرقت
له الأرض واهتز الفضاة بأسوق

جزى اللّه خيراً من إمام وباركت
يد اللّه في ذاك الأديم الممزق

قضيت أموراً ثم غادرت بعدها
نوائح في أكمامها لم تُفتق

وكنتَ نشرت العدل بالبر والتقى
وبالفضل والإحسان جودك قد بقى

فمن يسع أو يركب جناحي نعامة
ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق

أمين النبي حبه وصفيه
كساه المليك جبة لم تمزق

من الدين والإسلام والعدل والتقى
وبابك عن كل الفواحش مغلق

ترى الفقراء حوله في مغارة
شباعاً وراء ليلهم لم يؤرّق

○ ○ ○ ○ ○

أول خطبة لعمر بن الخطاب

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صعد المنبر في أول خطبة خطبها.. فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد ﷺ ثم قال: أيها الناس، إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى أخذ الحق منه، ثم نزل من المنبر.

ومما يدور في فلك هذه الخطبة قول أبي الفتح البستي:

عليك بالعدل إن وليت مملكه
واحذر من الجور فيها غاية الحذر

فالعدل ينفيه أنّى احتل من بلد
والجور يفنيه في بدو وفي حضر

وقول ابن المخارق عبد الله:

ومن ينصف الأيام لا يأت قاضياً
وكل امرئ لا ينصف الناس جائر

ويعذر ذو الذنب المقر بذنبه
وليس لمن يفضي على الذنب عاذر

ويقول محمد يوسف مقلد:

ليس يرعى الفضل إلا أهله
لا يصون الدرّ إلا من خبرْ

وقول ضرار بن الأزور الأسدي:



إن الأمور قد أصفاها الإله لكم
فلا يُزيلنَّكم بغي ولا بطر

تفكروا هل بغى ممن مضى أحد
إلا أحاط به من بغيه الغير

وقول طاهر بن الحسن:

فاعمل صواباً وخذ بالعزم مأثرة
فلن يُذمَّ لأهل الحزم تدبير

○○○○○

بيان من عمر بن الخطاب
يرسم فيه تقشفه وشدته وورعه

ذكر صاحب كتاب «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» شيئاً من ورع وتقشف وشدة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «وفي الصفوة»: أول ما تكلم به عمر رضي الله عنه حين صعد المنبر أن قال: اللهم إني شديد فليّني، وإني ضعيف فقوني، وإني بخيل فسخني.. وعن الحسن قال: أول خطبة خطبها رضي الله عنه: حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني ابتليت بكم وابتليتم بي فما كان بحضرتنا باشرنا ومهما غاب عنا وليناه أهل القوة والأمانة، فمن يحسن نزده حسنى ومن يسئ نعاقبه، ثم قال: بلغني أن الناس قد هابوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا: قد كان عمر يشدد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه؟، ولعمري من قال ذلك فقد صدق، كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله وهو راضٍ عني ولله الحمد، وأنا أسعد الناس بذلك، ثم ولي أبو بكر فكنت خادمه وعونه أخلط شدتي لينه فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى وهو راضٍ عني والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك، ثم إني وليت الآن أموركم، اعلموا أن تلك الشدة قد تضاعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، وأما أهل السلامة في الدين والقصد فإنما اللين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلمه أحد أو يتعدى عليه حتى أضع خده بالأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق، ولكم عليّ أيها الناس أن لا أخبأ عنكم شيئاً من خراجكم وإذا وقع عندي أن

لا يخرج إلا بحقه، ولكم عليّ أن لا ألقيكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قال سعيد بن المسيب: ولي عمر فزاد في الشدة في مواضعها واللين في مواضعه، وكان أباً للعيال حتى أنه كان يمشي إلى المغيبات ويقول: ألكنّ حاجة حتى أشتريها لكنّ؟ فإني أكره أن تخدعن في البيع والشراء، فيرسلن معه نحو الحملين، ومن كان ليس لها شيء اشترى لها من عنده.

قال مجاهد: تذاكر الناس في مجلس ابن عباس فأخذوا في فضل أبي بكر ثم في فضل عمر، فلما سمع ابن عباس ذكر عمر بكى بكاءً شديداً حتى أغمي عليه، ثم قال: يرحم الله عمراً قرأ القرآن وعمل بما فيه.

وعن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: انتصف القوم منا. قال حافظ إبراهيم من قصيدة له:

في الجاهلية والإسلام هيبته
تثني الخطوب فلا تعدو عواديها

في طي شدته أسرار مرحمة
للعالمين ولكن ليس يغشيها

وبين جنبيه في أوفى صرامته
فؤاد والدة ترعى ذراريها

أغنت عن الصارم المصقول درته
فكم أخافتْ غويّ النفس عاتيها

كانت له كعصا «موسى» لصاحبها
لا ينزل البُطْل مجتازاً بواديها

ويقول في موضع آخر من نفس القصيدة:

إن الذي برأ «الفاروق» نزهه
عن النقائص والأغراض تنزيها

فذاك خلق من الفردوس طينته
اللّه أودع فيها ما ينقيها

لا الكبر يسكنها لا الظلم يصحبها
لا الحقد يعرفها لا الحرص يغويها

○○○○○

هيبة عمر رضي الله عنه

لقد كان للكاتب المصري عباس محمود العقاد تعبيرات ذات دلالات في كتابه «عبقرية عمر» فتحت عنوان: ـ رجل ممتاز ـ أطلق الكاتب والأديب عباس محمود العقاد قلمه الدرّي بما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل له، ثم راح يسرد من واقع الأحداث التي يستدل بها على هيبة عمر رضي الله عنه، والتي كانت كتب التراث مشرقة بها، يقول العقاد: يوصف عمر بالعبقرية إذا نظرنا إلى أعماله، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذي جعله مستعداً لتلك الأعمال مضطلعاً بتلك القدرة وإن لم يكن من اللازم اللازب أن تقترن القدرة بالعمل الذي تستطيعه، لما يتفق أحياناً من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل.

إلا أن عمر كان رجلاً ممتازاً بعمله، ممتازاً بتكوينه.. وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين، إذا وصفته للأقدمين الذين يقيمون العبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذي يوصف لهم رجل ممتاز أو رجل نسيج وحده.. وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيمون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء، عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز أو رجل موهوب.

ويسوق العقاد أدلة كثيرة على أن عمر كان مهاباً، أكتفي من ذلك بنقل قصة تلك المرأة السوداء التي أذن لها الرسول ﷺ بضرب دفها بحضرته ﷺ، قال: كان عمر مهيباً رائع المحضر حتى في

حضرة النبي التي تتطأطأ من عنده الجباه وأولها جبهة عمر.

أذن النبي ﷺ يوماً لجارية سوداء أن تفي بنذرها «لتضربنّ بدفها فرحاً إن رده الله سالماً»، فأذن لها عليه الصلاة والسلام أن تضرب بالدف بين يديه.

ودخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، والصحابة مجتمعون فما هو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية، وأسرعت إلى دفها تخفيه، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر!».

وفي هذا المعنى قال الشاعر المصري حافظ إبراهيم في أحد مقاطع قصيدته الطويلة التي عنوانها «عمر بن الخطاب»:

أخاف حتى الذراري في ملاعبها
وراع حتى الغواني في ملاهيها

أريْتَ تلك التي للّه قد نذرتْ
أنشودة لرسول اللّه تهديها

قالت نذرتُ لإن عاد النبيّ لنا
من غزوة لعلى دُفّي أغنيها

ويمَّمت حضرة الهادي وقد ملأت
أنوار طلعته أرجاء ناديها

واستأذنت ومشت بالدف واندفعت
تُشجي بألحانها ما شاء مشجيها

والمصطفى وأبو بكر بجانبه
لا ينكران عليها من أغانيها

حتى إذا لاح من بعد لها عمر
خارت قواها وكاد الخوف يرديها
وخبأت دُفها في ثوبها فرقاً
منه وودّت لو أن الأرض تطويها

○○○○○

قصة تسور الفاروق حائط الدار

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد شؤون الرعية ليلاً ونهاراً لا يفتر ولا يكلّ ولا يملّ.. وذات ليلة وهو يقوم بتجواله العسسي سمع صوت رجل وامرأة في بيت فتسوَّر الحائط فإذا رجل وامرأة عندهما زق خمر، فقال: يا عدو الله، أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصية؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أنا عصيت الله في واحدة، وأنت في ثلاثة، فالله يقول: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ وأنت تجسست علينا، والله يقول: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، والله يقول: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ وأنت لم تفعل ذلك، فقال عمر: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، والله لا أعود، فقال: اذهب فقد عفوت عنك. وقد علّق محمود العقاد على هذه القصة بقوله:

ما أسرع ما تقول الحذلقة العصرية وهي مستريحة البال: هذه بدوات البادية في حكمها.. تجسس ثم محاجة جدلية ثم نزول عن عقاب، وهي طريقة تعوزها الإجراءات الرسمية التي نحن عليها حريصون وبها جد فخورين!

لكن ما القول في مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجري عليه النظام الحديث في إجراءاته الرسمية بغير استثناء؟

فالدساتير الحرة تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار.. والحكومات - مع هذا المنع الدستوري - تضطر إلى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوي الشبهات فإذا اتفق في حادث من الحوادث أنها استباحت سراً على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الإجراءات الرسمية؟ يكون ما كان من عمر في الحادث الذي رويناه

بغير اختلاف.. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور ولا تثبت عنده الجريمة إلا بدليل مشروع، والحكومة تضطر هنا إلى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء، وهي فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع لأنه جعل الاستطلاع سبيلاً إلى العظة والتوبة، واستغنى عن الإجراءات الرسمية التي نحن عليها حريصون وبها جد فخورين. انتهى تعليق العقاد.

ويبقى شعر حافظ إبراهيم في هذا الموضوع، فمن قصيدة له وطويلة يقول:

وفتية ولعوا بالراح فانتبذوا
لهم مكاناً وجدوا في تعاطيها

ظهرت حائطهم لما علمت بهم
والليل معتكر الأرجاء ساجيها

ورمت تفقيههم في دينهم فإذا
بالشرب قد برعوا - الفاروق - تفقيها

قالوا مكانك قد جئنا بواحدة
وجئتنا بثلاث لا تباليها

فأت البيوت من الأبواب يا عمر
فقد يُزَنُّ من الحيطان آتيها

واستأذن الناس أن تغشى بيوتهم
ولا تسلم بدار أو تحييها

ولا تجسس فهذي الآيُ قد نزلت
بالنهي عنه فلم تذكر نواهيها

فعدت عنهم وقد أكبرت حجتهم
لما رأيت كتاب اللّه يمليها

دعاء عمر للسماكة الثلاثة

في عام ثلاث وعشرين من الهجرة انتصر المسلمون في موقعة نهاوند، وفتحوا همدان، وصالح أهلها القعقاع بن عمرو، إلا أن أهل همدان نقضوا العهد فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى نعيم بن مقرن أن يسير بالجيش إلى همدان وأن يجعل على مقدمته أخاه سويد بن مقرن وعلى مجتنبتيه ربعي بن عامر الطائي، ومهلهل بن زيد التميمي فسار حتى نزل على ثنية العسل ثم تحدر على همدان وحاصرها فسألوه الصلح فصالحهم ودخلها، فبينما هو فيها ومعه اثني عشر ألفاً من المسلمين إذ تكاتف الروم والديلم وأهل الري وأهل أذربيجان واجتمعوا على حرب نعيم بن مقرن في جمع كثير.. فعلى الديلم ملكهم واسمه ـ موتاً ـ وعلى أهل الري أبو الفَرُّخان، وعلى أذربيجان ـ أسفندياذ ـ أخو رستم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت وقعة عظيمة، قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: إنها تعدل وقعة نهاوند ولم تك دونها فقتلوا من المشركين جمعاً كثيراً وجماً غفيراً لا يحصون كثرة. وقتل ملك الديلم موتاً وتمزق شملهم وانهزموا بأجمعهم بعد من قتل بالمعركة منهم، فكان نعيم بن مقرن أول من قاتل الديلم من المسلمين، وقد كان نعيم كتب إلى عمر يعلمه باجتماعهم، فَهَمَّه ذلك واغتم له، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة فحمد الله وأثنى عليه، وأمر بالكتاب فقرئ على الناس ففرحوا وحمدوا الله عزَّ وجلَّ، ثم قدم عليه بالأخماس ثلاثة من الأمراء، وهم: سماك بن خرشة ـ ويعرف بأبي دجانة ـ وسماك بن عبيد، وسماك بن مخرمة، فلما استسماهم عمر قال: اللهم أمسك بهم

الإسلام وأمد بهم الإسلام، ثم كتب إلى نعيم بن مقرن بأن يستخلف على همدان ويسير إلى الري فامتثل نعيم.. وقد قال نعيم في هذه الوقعة:

ولما أتاني أن موتاً ورهطه
بني باسلٍ جروا جنود الأعاجم
نهضتُ إليهم بالجنود مسامياً
لأمنع منهم ذمتي بالقواصم
فجئنا إليهم بالحديد كأننا
جبال تراءى من فروع القلاسم
فلما لقينا بها مستفيضةً
وقد جعلوا يسمون فعل المساهم
صدمناهُم في واجٍ روذٍ بجمعنا
غداة رميناهم بإحدى العظائم
فما صبروا في حومة الموت ساعة
لحد الرماح والسيوف الصوارم
كأنهم عند انبثاث جموعهم
جدار تشظى لبْنُهُ للهادم
أصبنا بها موتاً ومن لفّ جمعه
وفيها نهابٌ قسمهُ غير عاتم

○○○○○

عمر بن الخطاب
يحقق مع الذلفاء ونصر بن حجاج!!

لقد اختلف الرواة في نقل خبر نصر بن حجاج مع الذّلفاء اختلافاً كبيراً.. وهذا يؤيد قول القائل: «وما آفة الأخبار إلا رواتها»، وحيث أن هذا الاختلاف سيطول فإني أحيل القارئ الكريم الذي له رغبة في الوقوف على مصادر هذا الخبر إلى كتاب «خزانة الأدب» الجزء الرابع تحقيق عبد السلام هارون، حيث أشار إلى كثير من المصادر التي ذكرت الخبر على وجوه مختلفة، وملخص الأخبار هو أنه بينما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعس بالليل «وهو أول من عسّ بالليل من الولاة». سمع امرأة تقول:

ألا سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

إلى فتى ماجدٍ الأخلاق ذي كرم
سهل المحيّا كريم غير فجفاج

ومن الرواة من ذكر زيادة لهذين البيتين، من تلك الزيادة قولهم أنها قالت بالإضافة إلى البيتين السابقين:

تنميه أعراقُ صدق حين تنسبه
ذي نجدات عن المكروب فراج

نعم الفتى في سواد الليل نُصرته
لبائسٍ أو لملهوفٍ ومحتاج

قال عمر: من هذه المتمنية؟ فلزمها هذا الاسم، واستلبته نساء المدينة فضربن به المثل وقلن: «أصبُّ من المتمنية». قال الزجاج: قالت لها امرأة معها: من نصر بن حجاج قالت: رجل وددت أنه معي في ليلة من ليالي الخريف أو في أطول ليلة من ليالي الشتاء وليس معنا أحد، فدعا بها عمر فضربها بالدرة ضربات، ثم سأل عنها فلم يخبر عنها إلّا بخير، ثم أحضر نصر بن حجاج وله شعر، فقال له عمر: إنه ليتمثل بك ويغنى بك، وأمره بشعره فحلق ثم رآه في الحلق أحسن منه في الشعر فقال: لا تساكنيّ في بلدة فاختر أي البلدان شئت، أما المرأة فكتبت إلى عمر:

قل للإمام الذي تخشى بوادره
ما لي وللخمر أو نصر بن حجاج
إني عنيت أبا حفصٍ بغيرهما
شرب الحليب وطرف قاصر ساجي
لا تجعل الظن حقاً أو تيقنه
إن السبيل سبيل الخائف الراجي
إن الهو زمّه التقوى فخيّسه
حتى أقرّ بالجام واسراج

فبعث إليها عمر رضي الله عنه: لم يبلغنا عنك إلا خير.

ولنصر بن حجاج خبرٌ آخر مع شميلة امرأة مجاشع سأذكره إن شاء الله في موضع آخر.

○○○○○

عمر ورسول كسرى!!

لقد خلد التاريخ هذه العبارة: «عدلت فأمنت فنمت»، فأصبحت مضرب مثل ومحور ارتكاز لأي موضوع يكتب عن إيجابيات العدل وما يتركه من أثر طيب في نفوس الرعية إذا كان صادراً عن الراعي.

أما من خُوطب بها؟ وما هي الأسباب التي أوجدتها وجعلتها مخلدة؟ فهذا ما تخبرنا به الكتب التي عنيت بذكر سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

.. فقد روي أن ملك الفرس، كسرى قد بعث برسول إلى المدينة المنورة حيث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان ذلك الرسول يتوقع أنه سيقابل ملكاً عظيماً، وأنه سيواجه مشقة في مقابلة أمير المؤمنين، وأن هناك أبهة وحجاباً تقف دون السلطان وتمنع عامة الناس من الوصول إليه، فلا يقابله أحد إلا بعد الاستئذان. وما إلى ذلك مما كان يعهده من الغطرسة والمظاهر التي تزيد في تعظيم كسرى وهيبته، حيث الحاجب بعد الحاجب -حتى مجلسه، لكنه ـ وأعني بذلك رسول كسرى ـ عندما وصل المدينة المنورة وسأل عن الخليفة قيل له: هو ذاك النائم تحت الشجرة، فانطلق نحوه، وإذا به يرى شخصاً عليه برد قديم، فلم يصدق أن هذا هو أمير المؤمنين الذي تأمرت به الجيوش التي تزحف نحو أسوار فارس، وقد ساوره الشك أن في الأمر سخرية منه، لكنه أيقظ ذلك النائم، فتحقق له أنه عمر بن الخطاب، فقال عبارته المشهورة: «عدلت فأمنت فنمت». وقد أصبحت هذه العبارة مصدر وحي لكثير من الشعراء الذين يتناولون المواضيع الحاثة على

العدل.. والشاعر حافظ إبراهيم يعدُّ واحداً من الشعراء الذين صاغوا تلك القصة في أبيات من الشعر حيث قال:

وراع صاحب ـ كسرى ـ أن رأى عمراً
بين الرعية عُطْلاً وهو راعيها

وعهده بملوك الفرس أن لها
سوراً من الجند والأحراس يحميها

رآه مستغرقاً في نومه فرأى
فيه الجلالة في أسمى معانيها

فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً
ببردة كاد طول العهد يبليها

فهان في عينه ما كان يكبره
من الأكاسر والدنيا بأيديها

وقال قولة حق أصبحت مثلاً
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها

أمنْتَ لما أقمت العدل بينهم
فنمت نوم قرير العين هانيها

ويقول في موضع آخر من نفس القصيدة:

كذاك أخلاقه كانت وما عهدت
بعد النبوة أخلاق تحاكيها

○○○○○

من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ومما اقتطفه صاحب كتاب «المجتنى» من كلام الفاروق رضي الله عنه قوله في بعض خطبه: إياكم والبطنة، فإنها مكسلة عن العبادة، مفسدة للجسم، مؤدية إلى السّقم. وعليكم بالقصد في قوتكم، فإنه أبعد من السرف وأصح للبدن، وأقوى على العبادة، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

وعن مالك بن دينار أن الأحنف قال: قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أحنف من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن مزح استخف به، من أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه.

وروى أبو البختري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى: لا تؤخر عمل اليوم لغد فتتدارك عليك الأعمال، وأن للناس نبوة عن سلطانهم أو نفرة. أعوذ بالله من أن تدركني وإيّاكم، ضغائن محمولة ودنيا مؤثرة وأهواء متعبة.

ومن أقواله أيضاً رضي الله عنه: القاضي لا يصانع ولا يضارع. ولا يتبع المطامع. وروي عن الشعبي أنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حسب الرجل دينه.. ومروءته خلقه.. وأصله عقله.

وقال صاحب كتاب «المجتنى»: ومن كلام عمر، ويقال من كلام علي: حق المسلم على المسلم سبع خصال: السلام عليه إذا لقيه. ويجيبه إذا دعاه. ويعوده إذا مرض ويتبع جنازته إذا مات. ويحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها. والمؤاساة في ماله.

ومن كلام الشعراء في عمر رضي الله عنه قول عَلَم الدين أيدمر المحيوي من قصيدة طويلة تضمنها ديوانه. وعنوانها: «أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»، منها قوله:

وإذا «أبو حفص» ذكرت فمر حباً
بالصالحين فذاك جمع مفرد

ذاك المتوج تاج قول «المصطفى»
فيه وأي صفاته تتعدد

وهو الموفق في مواطن حكمه
آي الكتاب لما يقول تؤكد

أمنية الإسلام دعوة أحمد
للدين ينصره به ويؤيد

بزغت به شمس الهدى وتدفقت
نوداً ووجه الشرك أسفع أربد

وعلى منار الدين يُنْظرُ جهرةً
ملء العيون وكان سراً يعبد

في الجاهلية فضله ما فضله
عريان ليس يغمه من يحسد

وأحله الإسلام حيث أحله
فله الفخار طريقة والمتلد

○○○○○

أوائل ما صنع عمر رضي الله عنه

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه هو ثاني خلفاء رسول الله ﷺ. وهو أول من جمع القرآن في المصحف الشريف.. وهو أول من حرق الخمارة.. وأول من حمل الدّره. وكان يؤنب المذنب بها.. وهو أول من فتح الفتوح العظيمة. وأول من مسح الأرض. وأول من وضع الجزية على أهل الذمة.. وهو أول من مصَّر البلدان ـ أي جعلها عامرة بالبناء والسكان ـ. وهو أول من ولى القضاة في الأمصار.. وأول من دوّن الدواوين.. وأول من هدم دوراً ملاصقة للمسجد لتوسعة المسجد. وهو أول من فرش المسجد الأقصى بالحجر.. وأول من سنّ القيام في ليالي رمضان.. وهو أول من أمر بإضاءة المساجد ليلاً. وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في خلافته: نورّ الله قبر عمر كما نور مساجدنا بالأنوار.. وعمر هو أول من أسّس بيتاً خاصاً للمال. وهو أول من خصص رواتب للجنود والمؤذنين وغيرهم. وهو أول من أسّس البريد. وهو أول من خصّص رواتب للمجذومين. وأول من ضرب النقود.. وأول من شق الترع. وهو أول من أقام الجسور. وأول من أسّس الحسبة؛ كالشرطة الآن. وهو أول من قال: أطال الله بقاءك، وأيدك الله. وقد قالها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وعن جميع الخلفاء والصحابة والتابعين.

تلك أوائل، أو شيء من أوائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ذلك الخليفة الذي هيأ الله له من أمره رشداً، وجعله مضرب المثل في العدل وحسن السيرة حيث أساس الرعية، وأصلح شأنها أيّما إصلاح.

يقول الشاعر علم الدين أيدمر المحيوي في قصيدة طويلة تبلغ ستة وثلاثين بيتاً امتدح بها عمر رضي الله عنه، منها قوله:

ذو السيرة المثلى التي سارت له
مثلاً يبيد الدهرُ وهو مخلد

وسع الرعية إذ تقلد أمرها
أمناً يقرّهم ورفداً يرفد

وتطلعاً حَصَرَ السوار إحاطة
فيسدُّ مختلٌ ويصلح مفسد

وإذا تهجعت العيون سرتْ له
تحت الظلام سرية تتفقد

فتقيل وهو مهجّرٌ يسعى لها
ويحوطها فتنام وهو مسهّدُ

سعى الأب البر الرؤوف لصبية
ضعفاء إن هو لم يَقُتْهم يُجْهدوا

الخاش الأواه يشتمل العبا
فرائص الثقلين منه ترُعد

خمصان منطوي الضلوع على الطوى
والعين من جدواه أخضر أرعد

○○○○○

ما زال شعر ابن شجرة
حين ارتد عالقاً في نفس عمر!!

لقد ترك ارتداد بعض الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ أثراً بالغاً في نفوس خلفاء رسول الله وصحابته.. خاصة الذين أمعنوا في ارتدادهم وقاتلوا من أجله خليفة رسول الله أبا بكر رضي الله عنه.. وكانت الدائرة عليهم حيث أثخنهم قتالاً. وأعادهم صاغرين راغمين إلى دفع الزكاة وتأدية كل ما أوجبه الإسلام عليهم.. وحيث أن الشعر المحرض على الارتداد كان أشد أثراً في النفوس. وأبقى في الذاكرة، فقد كان للشعراء المرتدين الذين أطلقوا ألسنتهم مصرحين بارتدادهم، ومناوئين للمسلمين نظرة خاصة حيث خلفوا أثراً وقولاً متداولاً ربما تعشقه نفسٌ ضعيفٌ إيمانها فيكون سبباً لارتداد صاحبها..

ومن بين أولئك الشعراء الذين ارتدوا ثم عادوا إلى الإسلام أبي شجرة الذي أدرك عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان له موقف صعب مع عمر بن الخطاب.

وخبره كما ذكره في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير: إن أبا شجرة بن عبد العزى السلمي وهو ابن الخنساء كان قد ارتد فيمن ارتد من سليم، وقال حين ارتد:

صحا القلب عن ميّ هواه وأقصرا
وطاوع فيها العاذلين فابصرا





وأصبح أدنى رائد الجهل والصبى
كما ودها عنا كذاك تغيرا
وأصبح أدنى رائد الوص منهم
كما حبلها من حبلنا قد تبترا
ألا أيها المدلي بكثرة قومه
وحظك منهم أن تضام وتقهرا
سل الناس عنا كل يوم كريهة
إذا ما التقينا دارعين وحسرا
ألسنا نعاطى ذا الحماح لجامه
ونطعن في الهيجا إذا الموت أقفرا
وعارضه شهباً تقطر بالقنا
ترى البلق في حافتها والسنورا
فرويت رمحي من كتيبة خالد
وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

قال ابن الأثير: ثم إن أبا شجرة أسلم فلما كان زمن عمر قدم المدينة فرأى عمر وهو يقسم في المساكين، فقال: أعطني فإني ذو حاجة. فقال: ومن أنت؟ فقال: أنا أبو شجرة بن عبد العزى السلمي، قال: أي عدو الله، لا والله ألست الذي تقول:

فرويت رمحي من كتيبة خالد
وإني لأرجو بعدها أن أعمرا؟

وجعل يعلوه بالدره في رأسه حتى سبقه عدواً إلى ناقته فركبها ولحق بقومه.

○ ○ ○ ○ ○

عمر يطبق عدله وإنصافه على زوجته وولديه!!

وقرأت نبذة من منقول الأديب عبد الله خياط عن بعض شمائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال في منقوله عن ورع الفاروق وعدله وإنصافه:

ويخرج عمر إلى السوق يوماً في جولة تفتيشية فيرى إبلاً سماناً تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها، فيسأل: إبل مَنْ هذه؟ قالوا: إبل عبد الله بن عمر. وانتفض أمير المؤمنين كأنما القيامة قامت. وقال: عبد الله بن عمر؟؟ بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين. وأرسل في طلبه من فوره. وأقبل عبد الله يسعى وحين وقف بين يدي والده أخذ عمر يفتل سبلة شاربه [وتلك كانت عادته إذا همه أمر خطير]، وقال لابنه: ما هذه الإبل يا عبد الله؟ فأجاب: إنها إبل أنضاء (أي هزيلة) اشتريتها بمالي وبعثت بها إلى الحمى (أي المراعي) أتاجر فيها وأبتغي ما يبتغي المسلمون، فعقب عمر في تهكم لاذع: ويقول الناس حين يرونها، ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين. اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين. وهكذا تسمن إبلك ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين. ثم صاح به: عبد الله بن عمر.. خذ رأس مالك الذي دفعته واجعل الربح في بيت مال المسلمين.

وقدم بريد ملك الروم على عمر فاستقرضت امرأة عمر ديناراً فاشترت به عطراً وجعلته في قوارير وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم، فلما تسلمتها فرغتهن وملأتهن جواهر وقالت: اذهب إلى امرأة عمر، فلما أتاها فرغتهن على البساط فدخل عمر.. فقال: ما هذا؟.

فأخبرته بما كان، فأخذ الجوهر وباعه ودفع إلى امرأته ديناراً وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين.

وخرج عبد الله وعبيد الله أبناء عمر في جيش إلى العراق فلما مرّا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة رحب بهما وسهّل، وقال: لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت. ثم قال: بلى ها هنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين وأسلفكماه فتبتاعان من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون لكما الربح، ففعلا. وكتب إلى عمر أن يأخذ منهما المال فلما قدما على عمر قال: أكل الجيش أسلفكما؟ فقالا: لا. فقال عمر: أديا المال وربحه. فأما عبد الله فسكت. وأما عبيد الله فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين. فلو هلك المال أو نقص لضمناه. فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله. فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً [شركة] فقال عمر: قد جعلته قراضاً، فأخذ رأس المال ونصف ربحه وأخذا نصف ربحه فقط.

وقد صوّر الشاعر حافظ إبراهيم قصة الإبل التي رعاها عبد الله في الحمى حتى سمنت في هذه الأبيات:

وما وقى ابنك عبد اللّه أينقه
لما اطلعت عليها في مراعيها

ألفيتها في حماه وهي سارحة
مثل القصور قد اهتزت أعاليها

فقلت ما كان عبد اللّه يشبعها
لو لم يكن ولدي أو كان يرويها

قد استعان بجاهي في تجارته
وبات باسم أبي حفص يُنمّيها

ردوا النياق لبيت المال إن له
حق الزيادة فيها قبل شاريها
وهذه خطة لله واضعها
رَدّتْ حقوقاً فأغنت مستميحيها
ما الاشتراكية المنشود جانبها
بين الورى غير مبنىً من مبانيها
فإن نكن نحن أهليها ومنبتها
فإنهم عرفوها قبل أهليها

OOOOO

أبو لؤلؤة يقتل عمر رضي الله عنه
والجنّ تنوح على قتله

لقد ذكرت المراجع التاريخية كـ«البداية والنهاية»، و«شذرات الذهب»، و«الكامل في التاريخ»، و«تاريخ الخلفاء»، وغيرها أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعا الله أن يقبضه إليه شهيداً في المدينة بلد النبي ﷺ. فاستجاب الله هذا الدعاء حيث اتفق له أن ضربه غلام المغيرة بن شعبة ـ أبو لؤلؤة فيروز ـ المجوسي الأصل، وهو قائم يصلي في المحراب صلاة الصبح يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة من سنة ثلاث وعشرين بخنجر ذات طرفين.. فضربه ثلاث ضراب، وقيل: ست إحداهن تحت سرته.. فاستخلف في الصلاة عبد الرحمن بن عوف.. أما أبو لؤلؤة فخرج بخنجره لا يمر بأحد إلا ضربه حتى ضرب ثلاثة عشر رجلاً مات منهم ستة. ثم نحر نفسه لعنه الله بعد أن ألقى عليه عبد الله بن عوف برنساً.

.. وبعد الفراغ من الصلاة نقل عمر رضي الله عنه إلى منزله والدم يسيل من جراحه، وسأل رضي الله عمَّن قتله. فقيل: أبو لؤلؤة. فقال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل يدعي الإيمان. ثم قال: قبحه الله لقد كنا أمرنا به معروفاً فزدنا خراجه إلى مائة درهم في الشهر... وقد كان أبو لؤلؤة نجاراً، نقاشاً، حداداً، فقال له عمر: بلغني أنك تحسن أن تعمل رحى تدور بالهواء. فقال لعنه الله: أما والله لأعملن لك رحى يتحدث عنها الناس في المشارق والمغارب. وكان هذا يوم الثلاثاء عشية، وطعنه صبيحة الأربعاء.

.. وقد أوصى رضي الله عنه أن يكون الأمر شورى بعده في ستة ممن توفى رسول الله وهو عنهم راضٍ. وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص.. وقد أحدث موته رضي الله عنه حزناً عميقاً في نفوس المسلمين.. وقد ذكر أنّ الجنّ ناحت على قتله، فعن مالك بن دينار قال: سُمع صوت بجبل تبال حين قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لبيك على الإسلام من كان باكيا
فقد أوشكوا هلكى وما قدم العهد

وأدبرت الدنيا وأدبر خيرها
وقد ملّها من كان يوقن بالوعد

فنظروا فلم يروا شيئاً، وأخرج الطبراني عن أم سلمة أنها قالت: ما سمعت نوح الجن منذ قبض رسول الله ﷺ إلّا الليلة وما أدري أابني قبض، تعني الحسين. فقالت لجاريتها: اخرجي اسألي. فأخبرت أنه قد قتل. وإذا جنّيّة تنوح:

ألا يا عين فاحتفلي بجهدي
ومن يبكي على الشهداء بعدي

على رهط تقودهم المنايا
إلى متجبر في الملك عبد

ونسب صاحب كتاب «العمدة» إلى عمر رضي الله عنه هذه الأبيات التي يشير فيها إلى أن كل شيء هالك إلا وجه الله:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تغني عن هرمز يوماً خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياح له
والجنّ والإنس فيما بينها ترد

حوض هنالك مورود بلا كذب
لا بد من وِرده يوماً كما وردوا

○ ○ ○ ○ ○

بيعة عثمان رضي الله عنه

جاء في «البداية والنهاية» لابن كثير أن عمر رضي الله عنه أوصى أن يكون الأمر بعده شورى بين ستة نفر، هم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وقد تحرج رضي الله عنه أن يجعلها لواحد من هؤلاء على التعيين وقال: لا أتحمل أمرهم حياً وميتاً، إن يرد الله لكم خيراً يجمعكم على خير هؤلاء كما جمعكم على خير بعد نبيكم. فبويع لعثمان بالخلافة لثلاث خلون من المحرم سنة ٢٣ بعد مشاورات وجهد قام به عبد الرحمن بن عوف تمثل في استطلاع الرأي العام والخاص على مبايعة عثمان أو علي وهما اللذان رشحا من بين الستة. حتى أن عبد الرحمن بن عوف أتى إلى علي وقال له: إن لم أولِّك بمن تشير به عليَّ؟ فقال: بعثمان. وقال لعثمان مثل ذلك. فقال: بعلي.

واللحظة الحاسمة تتمثل في أن عبد الرحمن بن عوف دعى كلًّا من علي وعثمان إلى مسجد النبي ﷺ وجعل من ينادي الناس عامة. الصلاة جامعة فامتلأ المسجد وصعد عبد الرحمن منبر رسول الله ونادى عليّاً فقال له وهو ممسك بيده: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي. فأرسل يده ونادى عثمان وقال له مثل ما قال لعلي، قال عثمان: اللهم نعم. عند ذلك رفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد. قالها ثلاثاً. ثم قال: اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان فازدحم الناس يبايعون عثمان. وقيل: إن علياً كان أولهم، وقيل: بل كان آخرهم. ولنا أن نتصور عثمان حينما

بويع بالخلافة يقول أدعية يقترب منها الشوكاني في قوله:

ربـــي إنـــي مـــســـتـــعـــيـــن
بـــك يـــا رب أعـــنـــي

يـا مـلـيـك الـمـلـك ثـبـتـ
ـني وصـــدق فـــيـــك ظـــنـــي

وقوله:

سيجعل الرحمن لي سلطانا
يكون من لدنه لي معوانا

وقوله:

إذ رضـــي الـلّـــه عـــن عـــبـــده
فـقـد نـال مـا شـاء دنـيـا وديـنـا

وأرجـــو بـــأنـــي قـــد نـــلـــتـــه
وكـاد يـكـون رجـائـي يـقـيـنـا

وقول أبي الفتح البستي:

واشدد يديك بحبل اللّه معتصماً
فإنه الركن إن خانتك أركان

وقول عبد الله بن المبارك:

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل
وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

ولكأني بمبايع عثمان رضي الله عنه يقول كما قال القاضي الفاضل في هذا البيت:

فـلأنـت لـلأيـام أفـضـل سـائـس
وعـلـى عـبـاد الـلّـه خـيـر أمـيـن

أول خطبة وأول صلاة وأول حكم لعثمان

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: لما بويع عثمان بالخلافة لثلاث خلون من المحرم عام ٢٣، قام وصلّى بالناس العصر وكانت أول صلاة صلاها بالمسلمين وهو خليفة. أما أول خطبة له، فإنه لما بايع أهل الشورى أتى منبر رسول الله، فخطب الناس. ومما قاله في خطبته: «إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، ـ ومنها ـ: ألا إن الدنيا طويت على الغرر فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. ـ ومنها ـ: أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة». ويشير ابن كثير إلى أن ما قيل من أنه ارتج عليه فلم يدر ما يقول. حتى قال: «أيها الناس إن أول مركب صعب وإن أعش ستأتيكم الخطبة على وجهها». فهو ليس بإسناد تسكن النفس إليه.

وكما كان أبو بكر يخطب على الدرجة التي تلي الدرجة التي كان يخطب عليها رسول الله من منبره وعمر على الدرجة التي تلي الدرجة التي كان يخطب عليها أبو بكر، فإن عثمان قال: هذا يطول فصعد إلى الدرجة التي تلي الدرجة التي كان يخطب عليها رسول الله. . أما أول حكومة حكم فيها، فقضية عبد الله بن عمر، ذلك أنه غدا على ابنة لؤلؤة قاتل عمر فقتلها وضرب رجلاً نصرانياً يقال له: جفينة، بالسيف فقتله وضرب الهرمزان الذي كان صاحب تستر فقتله. وكان قد قيل: إنهما مالآ أبا لؤلؤة على قتل عمر، والله أعلم. ولما أمر بقتل عبد الله بن عمر. قال المهاجرون: أيقتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم؟ فودى عثمان أولئك القتلى من ماله وخلى سبيل عبد الله. يقول عمرو بن عاصم التميمي:

لا تـأكـلـوا أبـداً جـيـرانـكـم سـرفـاً
أهـل الـدعـارة فـي مـلـك ابـن عـفـان

إنَّ ابــن عــفــان الــذي جــربــتــم
فـطـم الـلـصـوص بـمـحـكـم الـفـرقـان

ويقول آخر:

كــل الأنــام بــنــو أب لــكــنــمــا
بـالـفـضـل تـعـرف قـيـمـة الإنـسـان

ويقول آخر:

أعطيت كل الناس من نفسي الرضا
إلا الــحــســود فــإنــه أعــيــانــي

ويقول المتنبي:

إني أصاحب حلمي وهو بي كرم
ولا أصاحب حلمي وهو بي جبن

ويقول آخر:

ذو الـود مـنـي وذوي الـقـربـى بـمـنـزلـة
وإخــوانــي أسـوة عــنــدي وإخــوانــي

ويقول آخر:

أرى الـنـاس يـبـنـون الـحـصـون وإنـمـا
غـوائـل آجـال الـرجـال حـصـونـهـا

إن مــن الأعــمــال دونــاً وصــالــحــاً
فـصـالـحـهـا يـبـقـى ويـهـلـك دونـهـا

○ ○ ○ ○ ○

أوائل ما فعل عثمان رضي الله عنه

ذكر الإمام جلال الدين السيوطي في كتابه الشهير «تاريخ الخلفاء» شيئاً من الأوائل التي كانت من فعل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال:

قال ابن عساكر في «الأوائل»: عثمان رضي الله عنه هو أول من أقطع القطائع. وهو أول من حمى الحمى. وهو أول من خفض صوته بالتكبير. وهو أول من خلّق المسجد (وخلَّقه أي طيَّبه ـ والخلوق نوع من الطيب). وهو أول من أمر بالآذان الأول في الجمعة. وهو أول من رزق المؤذنين. وهو أول من ارتج عليه في الخطبة، فقال: ـ أيها الناس، إن أول المركب صعب، وأن بعد اليوم أياماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء، وسيعلمنا الله.. أخرجه ابن سعد.

وعثمان رضي الله عنه هو أول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة. وهو أول من فوّض إلى الناس إخراج زكاتهم. وهو أول من ولي الخلافة في حياة أمه. وهو أول من اتخذ صاحب الشرطة. وهو أول من اتخذ المقصورة في المسجد خوفاً أن يصيبه ما أصاب عمر؛ أي أن يقتل وهو يصلي. هذا ما ذكره أبو هلال العسكري في أوائله.

قال: وعثمان رضي الله عنه هو أول من وقع الخلاف في زمانه بين الأمة مخطأ بعضهم بعضاً في أشياء نقموها عليه رضي الله عنه، وكانوا قبل ذلك يختلفون ولا يخطئ بعضهم بعضاً. وهو أول من اتخذ دار الضيافة في الإسلام.

قال السيوطي: وبقي من أوائل عثمان رضي الله عنه أنه أول من

هاجر إلى الله بأهله من هذه الأمة. وهو أول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة.

.. وفضائل عثمان رضي الله عنه أكثر من أن تحصى أو تحصر أو تعد. ولهذا كان للشعراء تسابق في مديحه وذكر مناقبه رضي الله عنه.. يقول الشاعر علم الدين أيدمر المحيوي من قصيدة طويلة أفرغ فيها. شيئاً من خصائص عثمان رضي الله عنه، منها قوله:

نطق الكتاب بفضله فمن الذي
يرتاب فيه جهالة أو يجحد

إلا كفور للهدى متنكب
أو جاهل في غيه متردد

فاسأل به الإسلام أية خلة
لم يجلها عنه بجود ينجد

أم هل تضمنه مقام لم يكن
يسعى إلى الإحسان فيه ويحفد

في بيعة الرضوان فاز بصفقة
عذرت أعادي مجده أن يكمدوا

إذا بايعت عنه «النبي المصطفى»
يده الكريمة حبذا تلك اليد

فمن أجله عقد ومنه شُرِّفت
وأخو السعادة للسعادة مرصد

وبحسبه أن لم يغب عن مشهد
إلا وأدرك فيه فضلاً يشهد

○○○○○

شيء من سيرة عثمان رضي الله عنه

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: من حسنات عثمان أنه جمع الناس على قراءة واحدة، وكتب المصحف على العرضة الأخيرة التي درسها جبريل على رسول الله ﷺ في آخر سنين حياته وكان سبب كتابة المصحف أن حذيفة بن اليمان قال له: أدرك الناس قبل أن يختلفوا في كتابهم كاختلاف اليهود والنصارى في كتبهم. وذكر شاهد من اختلاف الناس في القراءة. فجمع عثمان الصحابة وشاورهم في ذلك ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد. وتم له ذلك. ومن مناقبه أنه كان يقوم الليل ولا يوقظ أحداً من أهله يعينه على وضوئه، فقيل له: لو أيقظت بعض الخدم؟ فقال: لا. الليل لهم يستريحون فيه. وروي عن ابنه عمرو أن نقش خاتم عثمان.. آمنت بالذي خلق فسوَّى. وقيل: بل كان نقشه: آمن عثمان بالله العظيم.. وقال ليث بن أبي سليم: أول من خبص الخبيص عثمان وأنه خلط العسل والنقى ثم بعث به إلى رسول الله ﷺ ولما وضع بين يديه قال ﷺ: «من بعث هذا؟»، فقالوا: عثمان.. فرفع يديه إلى السماء فقال: «اللهم إن عثمان يترضاك فارض عنه». وروي عن جابر أنه أتي بجنازة ليصلي عليها رسول الله ﷺ فلم يصل. فقيل: يا رسول ما رأيناك تركت الصلاة على أحد قبل هذا! فقال: «إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله عزَّ وجلَّ». قال الترمذي: هذا حديث غريب. أما زوجاته فقد تزوج برقية بنت رسول الله فَوُلِدَ له منها عبد الله وبه كان يكنى بعدما كان يكنى، في الجاهلية بأبي عمرو. وبعد وفاتها تزوج بأختها أم كلثوم، وبعد وفاتها تزوج بفاختة بنت غزوان بن جابر فولد له منها عبد الله الأصغر. وتزوج بأم عمرو بنت جندب الأزدية فولد له عمراً،

وخالداً، وأباناً، وعمر، ومريم. وتزوج بفاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً. وتزوج أم البنين بنت عيينة فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمر وبنات عثمان. وتزوج نائلة بنت الغرافصه فولدت له مريم. وقتل وعنده أربع زوجات: نائلة، ورملة، أم البنين، وفاختة.

وقال شوقي:

وليس الخلد مرتبةٌ تُلقى
وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى همم كبار
إذا ذهبت مصادرها بقينا

ويقول مالك بن عويمر التغلبي:

توكلنا على الرحمن إنا
وجدنا الخير للمتوكلينا
ومن لبس التوكل لم تجده
يخاف جرائر المتجبرينا

ويقول محمد بن عبد الله البغدادي:

إذا أعطى القليل فتى شريف
فإن قليل ما يعطيك زين
وإن تكن العطية من دنيٍّ
فإنَّ كثير ما يعطيك شين

ويقول جميل صدقي الزهاوي:

إني أرى الناس بالأخلاق عائشة
وتلك باقية فيهم إلى حين
ولا ثبات لأخلاق بلا سند
من العواطف والمعقول والدين

عثمان بن عفان يعاتب
علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

قال أبو العباس المبرد: ويروى عن قنبر مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: دخلت مع علي بن أبي طالب على عثمان رضي الله عنه فأحبَّا الخلوة، فأومأ إليَّ علي بالتنحيٍّ، فتنحيت غير بعيد، فجعل عثمان يعاتب علياً وعلى مطرق، فأقبل عليه عثمان، فقال له: ما بالك لا تقول؟ فقال: إن قلت لم أقل إلا ما تكره وليس لك عندي ما تحب.

قال أبو العباس: وتأويل ذلك: إن قلت اعتددتُ عليك بمثل ما اعتددتَ به علي فلذعك عتابي وعقدي إلا أفعل. وإن كنتُ عاتباً: إلّا ما تحب.

ومما قيل من الشعر في العتاب والمعاتبة قول إلياس فرحات:

عتبتُ على ناس أضاعوا مودتي
وكل كريم خانه الصحب يعتب

وقول الآخر:

أعاتب ذا المودة من صديق
إذا ما رابني منه اجتناب

وقول البحتري:

أعاتب الدهر فيما جاء واحدة
ثم السلام عليه لا أعاتبه

وقول الآخر:

فدع العتاب فرب شرع
هاج أوله العتاب

وقول ابن المعتز:

معاتبة الألفين تحسن مرةً
فإن أكثروا أدمانها أفسد الحبا

وقول الآخر:

لعمرك ما ود اللسان بنافع
إذا لم يكن أصل المودة في القلب

وقول ابن حمديس:

ألا كم تُسْمع الزمن العتابا
تخاطبه ولا يدري الخطاب

وقول الآخر:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة
سكوتي بيان عندها وخطاب

○ ○ ○ ○ ○

المؤامرة التي أدت إلى قتل عثمان

روى ابن كثير في «البداية والنهاية» أن رؤوس أحزاب جاءت مُحَرَّضة من مصر ومن الكوفة والبصرة على قتل عثمان، وقيل: إن الذين جاؤوا من أكثر من ستمائة رجل يرأسهم: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة ابن بشر الليثي، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة السكوني، وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العكي.

وهم مصرُّون على تولية علي. ويرأس أهل الكوفة زيد بن صوحان، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم، وعلى الجميع عمرو بن الأصم، وهم عازمون على تأمير الزبير، ورأس أهل البصرة الحكيم بن جبلة العبدي، وبشر بن شريح بن ضبيعة القبسي، وذريح بن عباد العبدي، وعليهم كلهم حرقوص بن زهيد السعدي. وهم مصممون على تولية طلحة، وقد تظاهر الجميع أن مجيئهم كان للحج، وكان تواردهم على المدينة في شوال عام ٣٥، وبعد دخولهم المدينة تمكنوا من محاصرة دار عثمان من أواخر ذي القعدة إلى يوم الجمعة الثاني عشر من ذي الحجة عام ٣٥، وأشهر الذين أقدموا على تنفيذ القتل رجل يلقب بالحمار، ويكنى بأبي رومان واسمه أسود بن حمران المراري ضربه بحربه في يده. ومحمد بن أبي بكر شطحه بيده من البيت إلى باب الدار وجلس عمرو بن الحمق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات وقال: أما ثلاث فهن لله، وست لما كان في صدري عليه (أخزاه الله). ومنهم كنانة ابن بشر بن عتاب التجيبي ضرب جبينه ومقدمة رأسه بعمود حديد. وهناك شبه إجماع على أنه قتل يوم الجمعة واستشهد على ذلك بقوله رضي الله عنه: إني رأيت رسول الله في منامي فقال: إنك شاهد معنا الجمعة.

يقول محمد بن نصر الكاتب:

وإن شاء الإله فساد قوم
أتاح لهم أكابر معتدينا

ذوي كبرٍ ومجهلة وجبن
وإهمال لما يتوقعونا

ويقول أشجع السلمي:

داء قديم في بني آدم
فتنة إنسان بإنسان

ويقول أبو الفتح البستي:

من استنام إلى الأشرار نام وفي
ردائه منهموا صل وثعبان

ويقول أبو العتاهية:

لا أشتكي زمني هذا فأظلمه
وإنما أشتكي من أهل ذا الزمن

هم الذئاب التي تحت الثياب فلا
تكن إلى أحد منهم بمؤتمن

قد كان لي كنز صبر فاضطررتُ إلى
إنفاقه من مدارات لهم ففنى

وقد سمعت أفانين الحديث فما
سمعت قط بحرٍّ غير ممتحن

○ ○ ○ ○ ○

استنجاد عثمان بعلي رضي الله عنهما

كتب عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهما حين أحيط به فقال: أما بعد؛ فإنه قد جاوز الماء الزبى، وبلغ الحزام الطّبْيين، وتجاوز الأمر بي قدره وطمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه:

وإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكلٍ
وإلّا فادركني ولما أمزق

ويقرب من فحوى هذه الرسالة، قول أبي العتاهية:

أفٍّ لدنيا تلاعب بي
تلاعب الموت بالغريق

وقول إبراهيم الدباغ:

آه لو هبَّ القويُّ على البغي
ونال الضعيف بعض الحقوق
لفتحنا للخير كل سبيل
وسودنا في الشر كل طريق

وقول السري الرفَّا:

كل بدٍّ يشوبه كدر المطـ
ـل حقيق بأن يكون عقوقا

وقول أبي العلاء المعري:

رام نفعاً فضر من غير قصد
ومن البر ما يكون عقوقا



وقوله:

فإن بورك الخير الذي أنت صانع
فـأهـلٌ وإلا فـالـخـطـوب مـواحـق

وقول الشريف المرتضى:

مـن كـان لا تـرضـيـه مـنـك مـودة
فـاحـذر عـداوتـه بـكـل طـريـق

والبيت الذي استشهد به عثمان رضي الله عنه للمزق العبدي، واسمه شأس ابن نهار.

وهذا الاستنجاد لعلي يخالف ما ذكره صاحب كتاب «حياة الصحابة» (١١٦/٢)، حيث ذكر أنه رضي الله عنه لم يستنجد بأحد حينما حوصر في بيته. بدليل أن الحسين بن علي رضي الله عنه دخل على عثمان رضي الله عنه وهو محاصر فقال له: مرني بما شئت. فقال عثمان رضي الله عنه: «يا ابن أخي ارجع واجلس حتى يأتي الله بأمره».

○○○○○

عثمان رضي الله عنه
يخشى من إراقة الدم من أجله

ذكر الشيخ محمد يوسف بن محمد إلياس الكاندهلوي في كتابه «حياة الصحابة» أن أبا أحمد أخرج عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: لما اشتد الحصار بعثمان رضي الله عنه يوم الدار أشرف على الناس فقال: يا عباد الله! قال: فرأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه خارجاً من منزله معتماً بعمامة رسول الله ﷺ متقلداً سيفه، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على عثمان رضي الله عنه فقال له علي: السلام عليك يا أمير المؤمنين!! إن رسول الله ﷺ لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر وإني والله لا أرى القوم إلا قاتليك فمرنا فلنقاتل، فقال عثمان رضي الله عنه: «أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً وأقر أن لي عليه حقاً أن يهريق في سبيلي ملء حجمة من دم أو يهريق دمه فيّ». فأعاد علي رضي الله عنه عليه القول فأجابه بمثل ما أجابه. قال: فرأيت علياً خارجاً من الباب وهو يقول: اللهم إنك تعلم أنا بذلنا المجهود. ثم دخل المسجد وحضرت الصلاة. فقالوا له: يا أبا الحسن تقدم فصلِّ بالناس. فقال: لا أصلي بكم والإمام محصور، ولكني أصلي وحدي، فصلّى وحده وانصرف إلى منزله فلحقه ابنه. وقال: والله يا أبت قد اقتحموا عليه الدار. قال: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ هم والله قَاتِلُوه! قالوا: أين هو يا أبا الحسن؟ قال: في الجنة والله زلفى. وأين هم يا أبا الحسن؟ قال: في النار والله!! ثلاثاً. قال صاحب كتاب «حياة الصحابة»: هكذا جاء في «الرياض النضرة في مناقب العشرة» للمحب الطبري. ويذكر

الطبري في كتابه «الرياض النضرة» أن أبا قتادة ورجلاً آخر دخلا على عثمان رضي الله عنه، وهو محصور فاستأذنا في الحج فأذن لهم، فقالا له: إن غلب هؤلاء القوم مع من نكون؟ قال: علكيم بالجماعة. قال: فإن كانت الجماعة هي التي تغلب عليك مع من نكون؟ قال: فالجماعة حيث كانت فخرجنا فاستقبلنا ابن عمر رضي الله عنهما داخلاً إلى عثمان رضي الله عنه فرجعنا معه نسمع ما يقول: فسلَّم على عثمان، ثم قال: يا أمير المؤمنين صحبت رسول الله ﷺ فسمعت وأطعت، ثم صحبت أبا بكر رضي الله عنه فسمعت وأطعت، ثم صحبت عمر رضي الله عنه فسمعت وأطعت، ورأيت له حق الوالد وحق الخلافة، وها أنا طوع يديك يا أمير المؤمنين فمرني بما شئت، فقال عثمان رضي الله عنه: «جزاكم الله يا آل عمر خيراً - مرتين - لا حاجة لي في إراقة الدم».

وروى المحب الطبري أيضاً أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: إني محصور مع عثمان رضي الله عنه في الدار. قال: فرمى رجل منا، فقلت: يا أمير المؤمنين الآن طاب الضراب قتلوا منا رجل، قال: «عزمت عليك يا أبا هريرة إلّا رميت سيفك، فإنما تراد نفسي وسأقي المؤمنين بنفسي». قال أبو هريرة رضي الله عنه: فرميت سيفي لا أدري أين هو حتى الساعة...

وفي هذا يقول الشاعر عَلَمَ الدين أيدمر المحيوي من قصيدة طويلة تبلغ ٣٢ بيتاً:

ترك الدفاع فلا السنان مسدّد
للذّب عنه ولا الحسام مجرد

مستسلماً لله ينفذ حكمه
فيه فليس بغيره يستنجد

متحرجاً من أن يصيب ثيابه
دم مسلم وإن اعتدوا يتشهد

فسخا بمهجته كعادة جوده
والمرء لا يدع الذي يتعوّد

جَذَلاً بلقيان الحبيب وقوله
إن العشية للزيارة موعد

ولكبر ما نقموا عليه ضلّة
قربى تُبَرُّ وهفوة تتغمد

سُلِبَ البقاء الرذل غير مذمم
مسلوبُه فله البقاء السرمد

عجباً على عجب لأمرٍ واحد
هذا به يشقى وهذا يسعد

○○○○○

شيء من مناقب عثمان رضي الله عنه

أورد الشوكاني، واسمه محمد بن علي في كتابه «در السحابة في مناقب القرابة والصحابة» بعضاً من مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال:

أخرج الترمذي عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العُسرة فنثرها في حجره، فجعل ﷺ يقلبها ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» - مرتين -.

وقال: أخرج ابن عساكر من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: «ليدخلن بشفاعة عثمان سبعون ألفاً كلهم قد استوجبوا النار؛ الجنة بغير حساب».

قال: أخرج الطبراني في الكبير والأوسط من حديث ابن مسعود. قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فأصاب الناس جهد حتى رأيت الكآبة في وجوه المسلمين، والفرح في وجوه المنافقين.. فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال: «والله لا تغيب الشمس حتى يأتيكم الله برزق»، فعلم عثمان أن الله ورسوله سيصدقان، فاشترى أربع عشرة راحلة بما عليها من الطعام فوجه إلى النبيّ ﷺ منها بتسع فلما رأى ذلك النبي ﷺ قال: «ما هذا؟»، قالوا: أهدي إليك من عثمان، فعُرف الفرح في وجه رسول الله ﷺ، والكآبة في وجوه المنافقين. فرأيت النبي ﷺ قد رفع يديه حتى رؤي بياض أبطيه يدعو لعثمان دعاء ما سمعته دعا لأحد قبله ولا بعده: «اللهم أعطي عثمان، اللهم افعل بعثمان».

وقال: أخرج ابن عدي، وابن عساكر من حديث عقبة بن عامر عنه ﷺ قال: «دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب ودرّ وياقوت فقلت: لمن هذا؟ قالوا: للخليفة من بعدك المقتول ظلماً عثمان بن عفان».

وقال: أخرج الطبراني في الكبير، وابن عساكر عن بشير الأسلمي قال: لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها: «رُومه»، وكان يبيع منها القربة بمد. فقال له رسول الله ﷺ: «بعنيها بعين في الجنة». فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها، ولا أستطيع ذلك، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتجعل لي مثل الذي جعلته له عيناً في الجنة إن اشتريتها. قال: «نعم». قال: قد اشتريتها وجعلتها للمسلمين.

ومن نور هذه المناقب يستلهم الشاعر علم الدين أيدمر المحيوي القول فينشئ قصيدة طويلة في عثمان رضي الله عنه، منها قوله:

وغداة جيش العسرة المندوب إذ
قعدوا وعندهم المقيم المقعد

جهد يصدُّ عن الجهاد إذا هم
نهدوا إليه ثناهم أن ينهدوا

لبّى الرسول وقد دعا مسترفداً
بأبي وأمي ذلك المسترفد

بمواهب ضمن الرسول له بها
جنات عدن في ذراها يخلد

وهو المحبّب في قريش ومثله
عكفت عليه محبة وتودد

يجلو ظلام الشك عن عليائه
نوران ظل سناهما يتوقد

وصلا حبال محمد بحباله
مع قرب قرباه التي لا تبعد

وهو المضاعف أجره بمصيبةٍ
ما خانه صبر لها وتجلد

○○○○○

مقتل عثمان رضي الله عنه

عندما عُزِلَ عمرو بن العاص من إمارة مصر في عهد عثمان اغتنم نفر من الناس الذين يسعون لفرقة المسلمين فأخذوا يؤلِّبون الأحزاب على عثمان، وعلى رأسهم اليهودي عبد الله بن سبأ الذي يتظاهر بالإسلام، وقد اخترع كلاماً حيث قال لرجل: أليس قد ثبت أن عيسى ابن مريم سيعود إلى هذه الدنيا؟ فقال له الرجل: نعم. فقال: فرسول الله محمد أفضل منه فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا، وهو أشرف من عيسى. ثم يقول: وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب محمد خاتم الأنبياء وعليّ خاتم الأوصياء، ثم يقول: فهو أحق بالأمر من عثمان، وعثمان معتدٍ في ولايته ما ليس له. فأنكروا عليه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاغتشَّ به بشر كثير، كما أخذ عمرو بن العاص يؤلب على عثمان حتى تفاقم الأمر وصار الناس يجترئون على عثمان رضي الله عنه بالكلام والمجادلة التي لا تليق به. وعلى رأس المجترئين عليه ابن عديس البلوي الذي صعد منبر رسول الله وأخذ يتنقَّص عثمان في خطبته، ثم تطور الأمر من الانتقاص إلى فرض الحصار على بيته من قبل الأحزاب التي ألبت عليه، فالتف حوله نفر من الصحابة لحمايته من القتل لكنه طلب منهم الخروج من بيته وتركه لرؤيا رآها في منامه أكدت له قرب أجله.. قال رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ في منامي فقال لي: يا عثمان أفطر عندنا.. فأصبح صائماً وقتل من يومه يوم الجمعة ١٢/١٢/٣٥، ويروى أنه أمر الناس أن لا يقاتلوا دونه، ولبس سراويلاً لم يلبسها في جاهلية ولا إسلام لئلا تبدو عورته إذا قتل؛ لأنه كان شديد الحياء؛ وأنه اتقى سيف أحد القتلة بيده

التي قال عنها: إنها أول يد كتبت المفصل فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ولم يكتف القتلة بقتله بل نهبوا داره وأخذوا صندوقاً مقفلاً، ولما فتحوه وجدوا بداخله ورقة كتب فيها وصيته.. ومما قاله حسان بن ثابت في رثائه:

من سرة الموت صرفاً لا مزاج له
فليأت مأسدة في دار عثمانا

مستحقبى حَلَقٍ الماذي قد سفعت
فوق المخاطم بيضٌ زان أبدانا

بل ليت شعري وليت الطير تخبرني
ما كان شأن علي وابن عفانا

ضحوًّا بأشمط عنوان السجود به
يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

وله من قصيدة أخرى:

إني رأيت أمين اللّه مضطهداً
عثمان رهناً لدى الأجداث والكفن

يا قاتل اللّه قوماً كان شأنهم
قتل الإمام الأمين المسلم الفطن

ما قاتلوه على ذنب ألمَّ به
إلا الذي نطقوا بوقاً ولم يكن

إذ تذكرته فاضت بأربعة
عيني بدمع على الخدين محتتن[1]

---

(١) المحتتن: المتتابع.

الفتنة والانشقاق بعد مقتل عثمان وتولية علي

جاء في «البداية والنهاية» لابن كثير أنه لما قتل عثمان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه ومعه أصابع زوجته نائلة التي أصيبت حين حاجفت عنه بيدها فقطعت مع بعض الكف، فورد به على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس وعلق الأصابع في كم القميص وندب الناس إلى الأخذ بهذا التأثر، وجعل القميص يرفع تارة ويوضع تارة والناس يتباكون حوله سنة، وقيل: إن الناس اعتزلوا الناس في هذا العام، ومن الذين قاموا مع معاوية من الصحابة على تحريض الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله من الخوارج: عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أمامة، وعمرو بن عنبسه، ومن التابعين: شريك بن حباشه، وأبو مسلم الخولاني، وعبد الرحمن بن غنم.. ويروى أنه لما استقر أمر البيعة لعلي دخل عليه بعض الصحابة وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان؛ وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا، فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود ليقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان. فقال لهما: مهلاً عليّ حتى أنظر في الأمر. ودخل عليه المغيرة وقال: إني أرى أن تقر عمالك على البلاد. فإذا أتتك طاعتهم استبدلت بعد ذلك بمن شئت وتركت من شئت، ثم جاء من الغد، فقال له: إني أرى أن تعزلهم لتعلم من يطيعك ممن يعصيك فعرض عليٌّ على ابن عباس، فقال: نصحك بالأمس وغشك اليوم، فبلغ ذلك المغيرة، فقال: نعم، نصحته فلما لم يقبل غششته، ثم خرج المغيرة فلحق بمكة.. ومن شعر علي رضي الله عنه قوله:

لا تكره المكروه عند نزوله
إن المكاره لم تزل متباينه

نعمة لا تستقل بشكرها
للّه في جنب المكاره كامنه

وقوله:

ما لا يكون فلا يكون بحيله
أبداً وما هو كائن سيكون

سيكون ما هو كائن في وقته
وأخو الجهالة متعب محزون

يسعى القوى فلا ينال بسعيه
حظا ويحظى عاجز ومهين

وقوله:

الصبر مفتاح ما يرتجى
وكل خير به يكون

فاصبروا وإن طالت ليالي
فربما طاوع الحرون

وربما نيل باصطبار
ما قيل. هيهات ما يكون

○○○○○

بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة

ذكر أنه لما قتل عثمان رضي الله عنه يوم الجمعة الثاني عشر، وقيل: الثامن عشر من شهر ذي الحجة عام ٣٥، عدل الناس إلى علي رضي الله عنه فبايعوه قبل أن يدفن عثمان، وقيل: بعد دفنه، وقيل: إن علياً امتنع عن الإمارة وفرَّ من الناس إلى حائط بني عمرو بن مبدول وأغلق الباب وطرق الناس الباب وقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير ولم يزالوا به حتى أجاب. وقيل: إن أول من بايعه طلحة بيده اليمنى وكانت شلاء من يوم أُحُد لمَّا وقى بها رسول الله، فقال بعض القوم: والله إن هذا الأمر لا يتم، وقال آخر: إنا لله وإنا إليه راجعون. ويقال: إنه هرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً. منهم: مروان بن الحكم، والوليد بن عقبة، وقيل: إنه لم يبايعه قدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة.. ويشير ابن كثير إلى أن الواقدي قال: بايع الناس علياً بالمدينة وتربص سبعة نفر لم يبايعوه، وهم: ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن سلامة بن رمش، وأسامة بن زيد.. وقيل: إن المدينة بقيت خمسة أيام بعد مقتل عثمان وأميرها الغافقي بن حرب، ولما بويع علي بالخلافة قام فخطب الناس الخطبة الأولى، ومنها قوله: (إن الله أنزل كتاباً هادياً بيَّن فيه الخير والشر فخذوا الخير ودعوا الشر. ـ وقوله: اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم ـ ثم أطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه.. ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية). فلما فرغ من خطبته، قال المصريون الذين جاءوا متحيزين ضد عثمان واشترك رؤساؤهم في قتله:

خذها إليك واحذرن أبا الحسن
إنا نُمرُّ الأمر إمرار الرسن

صوله آساد كآساد السفن
بمشرفيات كغدران اللبن

ونطعن الملك بلينٍ كالشطن
حتى يمرنَّ على غير عنن

أما عليّ رضي الله عنه فيقول:

هذا زمان ليس إخوانه
يا أيها المرء بإخوان

إخوانه كلهم ظالم
لهم لسانان ووجهان

يلقاك بالبشر وفي قلبه
داء يواريه بكتمان

ومما ينسب إليه:

ولو أني بليت بهاشمي
خؤولته بنو عبد المدان

صبرت على عداوته ولكن
تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

○○○○○

شيء من أخبار
علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

جاء في «البداية والنهاية» لابن كثير أن علي بن أبي طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب، واسمه شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف، واسمه المغيرة بن قصي، واسمه زيد بن كلاب، ينتهي نسبه إلى معد بن عدنان كان علي يكنى بأبي تراب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويقال: إنها أول هاشمية ولدت هاشمياً، وله من الإخوة: طالب، وعقيل، وجعفر، وكلهم أكبر منه. وله أختان: هانئ وجمانة، وكلهم من فاطمة. أسلم علي وهو ابن سبع، وقيل: ابن ثمان، وبلغ الشك إلى ست عشرة سنة.. ويروى أن سبب إسلامه وهو صغير يعود إلى أنه كان في كفالة رسول الله؛ لأنه كان قد أصابتهم سنة مجاعة فأخذه من أبيه فكان عنده، فلما بعثه الله بالحق آمنت خديجة وأهل البيت ومن جملتهم علي. وروي عنه أنه قال: قيل لي يوم بدر ولأبي بكر: قيل لأحدنا معك جبريل ومع الآخر ميكائيل. قال: وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل ويكون في الصف.. وشهد عليّ أُحُد وكان على الميمنة ومعه الراية بعد مصعب بن عمير.

وقيل: إنه غسل من وجه رسول الله الدم الذي كان أصابه من الجراح حين شج في وجهه وكسرت رُباعيته، كما شهد يوم الخندق وشهد الحديبية وبيعة الرضوان وشهد خيبر وكانت له بها مواقف هائلة منها أن رسول الله قال: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها، فدعا علياً وكان

أرمد، فدعا له وبصق في عينه فلم يرمد بعدها فبرأ وأعطاه الراية ففتح الله على يده القتال مرحباً اليهودي، ويروى أن عمر استقضى علياً في أيام خلافته.. ومن شعره رضي الله عنه قوله:

لا تخضعنَّ لمخلوق على طمع
فإن ذلك وهن منك في الدين

واسترزق اللّه مما في خزائنه
فإنما الأمر بين الكاف والنون

إن الذي أنت ترجوه وتأمله
من البرية مسكن ابن مسكين

ما أحسن الجود في الدنيا وفي الدين
وأقبح البخل فيمن صيغ من طين

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا
لا بارك اللّه في الدنيا بلا دين

لو كان باللب يزداد اللبيب غنى
لكان كل لبيب مثل قارون

لكنما الرزق بالميزان من حكم
يعطي اللبيب ويعطي كل مأفون

ويقول:

أنا الغلام القريشي المؤتمن
الماجد الأبلج ليث كالشطن

○○○○○

خروج علي من المدينة وما سبّبه من أحداث

قال ابن كثير: رتب علي جيشه واستعد للخروج من المدينة لقتال أهل الشام بسبب امتناعهم عن مبايعته. فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية وجعل ابن العباس على الميمنة وعمرو بن أبي مسلمة على الميسرة. وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجراح واستخلف على المدينة ابن قثم بن العباس، ولم يبق شيء إلا أن يخرج من المدينة. لكنه حصل ما لم يكن في الحسبان، حيث بلغه مسيرة الجيش الذي صحبته عائشة إلى البصرة لأخذ الثأر بدم عثمان، فغير وجهة نظره وحث الناس على المسير إلى البصرة ليمنع الناس من دخولها إن أمكن أو طردهم عنها إن كانوا قد دخلوها، فتثاقل الناس وما استجاب له إلا نفر قليل، ثم خرج من المدينة في نحو تسعمائة مقاتل. وقيل: إنه لقي عبد الله بن سلام بالزبدة، فأخذ عبد الله بعنان فرسه وقال: يا أمير المؤمنين لا تخرج منها، فوالله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً، وسار علي ولم يأخذ بمشورة ابنه الحسن، فدارت المعارك وقال علي قولته: «لا بد مما هو كائن أن يكون ألا وإنَّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تحبني وتعمل بعملي».

ثم توالت الوقعات وقعة الجمل ووقعة صفين وصار التحكيم الذي انتهى إلى تثبيت معاوية في الخلافة وخلع علي وهي قصة مشهورة في كتب الأدب والتاريخ، فمفوض معاوية هو عمرو بن العاص ومفوض علي أبو موسى الأشعري، وبعد إعلان التحكيم ظهرت قضية الخوارج، وسأبين طرفاً منها قبل ذكر صفة قتل علي رضي الله عنه إن شاء الله.. ومن أقواله رضي الله عنه:

تطلب الراحة في دار العنا
خاب من يطلب شيئاً لا يكون

ولا تك نازلاً في دار الذل
فإن الذل يقرن بالهوان

فإن أولاك ذو كرمٍ جميلاً
فكن بالشكر منطلق اللسان

وله:

إذا هبَّت ريحك فاغتنمها
فعقبى كل خافقة سكون

وإن درَّتْ نياقك فاحتلبها
فما تدري الفصيل لمن يكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها
فما تدري السكون متى يكون

ولأبي الفتح البستي:

لا تستشر غير ندب حازم يقظ
قد استوت فيه أسرار وإعلان

من استشار حروف الدهر قام له
على حقيقة طبع الدهر برهان

○ ○ ○ ○ ○

الخوارج وموقف علي رضي الله عنه منهم

ذكر ابن كثير أنه عندما تم التحكيم في أمر النزاع القائم بين علي ومعاوية بواسطة الحكمين المفوضين: أبي موسى الأشعري من قِبَلِ علي وعمرو بن العاص من قِبَلِ معاوية، أنكر بعض الصحابة على التحكيم وقال قائل منهم: أتحكِّمون في دين الله الرجال؟ وقال آخر: لا حكم إلا لله، وكان هذا خروجاً من الناس على علي وعلى ما تم الاتفاق عليه من الأخذ بمبدأ التحكيم. وبهذا سمّوا بالخوارج واعتزلوا عن الجيش وهم نحو ١٢ ألف، وأبوا أن يساكنوا علياً في الكوفة، ونزلوا بمكان يقال له: حروراء وصرَّحوا بكفر علي أخزاهم الله. وقد كان على رأسهم زرعة بن البرج الطائي، وحرقوص بن زهير السعدي، ولما تبين لعلي ما حدث من خداع حصل في التحكيم من قبل عمرو بن العاص، ذلك الخداع الذي ثبت به معاوية وخلع به علي استعد علي وهيأ الجيوش لقتال أهل الشام، وبينما هو كذلك إذا بالخبر يأتيه بأن الخوارج عاثوا في الأرض فساداً، وسفكوا الدماء واستحلوا المحارم، وقتلوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله وامرأته وهي حامل فبقروا بطنها. عند ذلك غيَّر علي رأيه فأرسل للخوارج رسولاً هو الحرب بن مرة العبدي فقتلوه، فلما بلغ ذلك علياً سار بالجيش إلى الخوارج، ولما اقترب منهم بعث إليهم قائلاً: ادفعوا إلينا قتلة أخواننا منكم، فبعثوا إليه يقولون: كلنا قتل إخوانكم ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم، ثم نصحهم وحذرهم، فلم ينتصحوا ولم يستجيبوا بل أخذوا يرددون: الرواح الرواح إلى الجنة واصطفوا للقتال ووقفوا مقاتلين لعلي وأصحابه فأمر علي برفع راية. وقال لهم: من جاء إليها فهو آمن ومن انصرف

إلى الكوفة والمدائن فهو آمن. إنه لا حاجة لنا إلا فيمن قتل إخواننا فانصرف منهم نفر كثير ولم يبق منهم إلا ألف أو أقل، فزحفوا إلى علي وتقدم علي. ودارت رحا المعركة وصار للرماح وللسيوف صليل، وصار الخوارج صرعى تحت سنابك الخيل. وقتل أمراؤهم: عبد الله بن وهب الراسب، وحرقوص وشريح بن أبي أوفى، وعبد الله بن سخبرة. ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة، ومشى علي بين القتلى منهم ويقول: بؤساً لكم ضرّكم من غرّكم.

قال أبو الفتح البستي:

من يزرع الشر يحصد في عواقبه
ندامة ولحصد الزرع أبان

ومما ينسب لعلي:

سيف رسول اللّه في يميني
وفي يساري قاطع الوتين

فكل من بارزني يجيني
أضربه بالسيف عن قريني

ومما ينسب إليه أيضاً:

إذا المرء لم يرضى ما أمكنه
ولم يأت من أمره أزينه

واعجب بالعجب فاقتاده
وتاه به التيه فاستحسنه

فدعه فقد ساء تدبيره
سيضحك يوماً ويبكي سنه

وفي يوم النهروان قال رجل من الخوارج:

أضـربـهـم ولـو أرى أبـا الـحـسـن
ألـبـسـتـه بـصـارمـي ثـوب غـبـن

فرد عليه علي رضي الله عنه وهو خارج إليه:

يـا أيـهـذا الـمـبـتـغـى أبـا حـسـن
إلـيـك فـانـظـر أيـنـا يـلـقـى الـغـبـن

وحمل عليه عليّ وشكّه برمحه.

○○○○○

منطلق الفتنة

قال ابن كثير: لما تيقن الناس أن البيعة لم تتم لعلي من جميع ولاة الأمصار كالشام والبصرة والكوفة ما لم يقتل قتلة عثمان أخذ الناس يتحوَّلون من المدينة إلى مكة بما في ذلك أزواج رسول الله، ولما اجتمع خلق كبير من الصحابة قامت عائشة رضي الله عنها في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان فاستجاب لها الناس وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك، فقال قائل: نذهب إلى الشام. فقيل له: معاوية فيها وقد كفاكم أمرها. وقال آخر: نذهب إلى المدينة ونطلب من علي أن يسلم إلينا قتلة عثمان. وقال آخر: نذهب إلى البصرة ونتقوى من هناك بالخيل والرجال ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان، وسار الناس: وصحبة عائشة وفيهم ألف فارس من أهل مكة والمدينة وتلاحق بهم آخرون فصاروا ثلاثة آلاف. وعائشة على جمل اسمه عسكر، وودع الجيش عند مسيره في يوم باكٍ سمي يوم النحيب، ومروا في مسيرهم ليلاً بما يقال له: الحوأب، فنبحتهم كلاب عنده، وسألت عائشة ما اسم هذا المكان؟ فقالوا: الحوأب، فضربت بإحدى يديها الأخرى، وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ما أظنّني إلا راجعة. قالوا: ولم؟ قالت: سمعت رسول الله يقول لنسائه: «ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب»، ثم أناخت بعيرها. وقالت: ردوني ردوني أنا والله صاحب ماء الحوأب. فقال لها عبد الله بن الزبير: إن الذي أخبرك أن هذا ماء الحوأب قد كذب. ثم قال الناس: النجا النجا هذا جيش عليّ قد أقبل فارتحلوا نحو البصرة، وكتبت إلى الأحنف بن قيس وغيره في البصرة وأخبرتهم إنما جاءت تطلب دم عثمان؛ لأنه قتل ظلماً في شهر حرام وبلد حرام، وكان هذا جوابها لمن سألها عن سبب مجيئها، فقال عثمان بن حنيف: إنا لله وإنا إليه راجعون. دارت رحا الإسلام ورب الكعبة فانظروا

بأي زيفان تزيف، وبدأ القتال وانقسم الناس إلى طوائف متناحرة.

يقول شوقي:

وما اعتراض الحظ دون المنى
من هفوة المحسن أو ذنبه

ويقول مسعود سماحة:

ولي حظ دهاه ما دهاني
وأصبح ما عراه ما عراني

أيمم حيث كان فلا أراه
ويقصد حيث كنت فلا يراني

ويقول صفي الدين الحلي:

إذا الجد لم يكن لي مسعداً
فما حركاتي إلا سكون

إذا لم يكن ما يريد الفتى
على رغمه فليرد ما يكون

ويقول خليل مطران:

لا حقَّ إلّا أن تنافح دونه
إن القناة عصاً بغير سنان

ويقول ابن الدهان الموصلي:

والحلم يطفي عنك كل عظيمة
كالماء لا تبقى به النيرانُ

والفسق يزري بالفتى ولو أنه
بالفهم قَسٌ والصلاح بيان

بداية ظهور سلبيات
انتظار علي في الأخذ بدم عثمان

جاء في «البداية والنهاية» لابن كثير أن ابن عباس أشار على علي باستمرار نوابه في البلاد إلى أن يتمكن الأمر وأن يقر معاوية خصوصاً على الشام وقال: إني أرى إن عزلته عنها أن يطلبك بدم عثمان ولا آمن طلحة والزبير أن يتكلما عليك بسبب ذلك، فقال علي: إني لا أرى هذا، ولكن اذهب إلى الشام فقد وليتكها، فرفض ابن عباس ذلك وقال له: أكتب معي إلى معاوية فَمَنِّهُ وَعِدْهُ فرفض علي ذلك. فقال ابن عباس: الحرب خدعة كما قال رسول الله ﷺ؛ فوالله لَإن أطعتني لأوردنهم بعد صدورهم. ونهى ابن عباس علياً عن الرحيل إلى العراق ومفارقة المدينة. فأبى عليه ذلك، ثم أخذ رضي الله عنه يستبدل الأمراء، فولّى على الأمصار ثواباً، وولّى عبد الله بن عباس على اليمن. وولّى سمرة بن جندب على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية. فسار سهل حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية. فقالوا: من أنت؟ فقال: أمير. قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام. فقالوا: إن كان عثمان بعثك فحي هلا بك. وإن كان غيره فارجع. فقال: أو ما سمعتم الذي كان؟ قالوا: بلى. فرجع إلى علي. وأما قيس فاختلف عليه أهل مصر بايع له الجمهور. وطائفة قالت: لا نبايع حتى نقتل قتلة عثمان، وكذلك أهل البصرة. أما عمارة فصده عن الكوفة طلحة بن خويلد غضباً لعثمان، فرجع إلى علي فأخبره.

وانتشرت الفتنة وتفاقم الأمر واختلفت الكلمة، ثم بعث علي كتباً

لمعاوية، وبعد ثلاثة أشهر جاء رسول معاوية فدخل على علي، وسأله علي: ما وراءك. فقال: جئتك من غير قوم لا يريدون القَوَدَ كلهم موتور. تركت سبعين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو على منبر دمشق. فقال علي: اللهم إنيّ أبرأ إليك من دم عثمان. بعد ذلك عزم عليّ على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بمصر، وإلى أبي موسى بالكوفة، وإلى عثمان أبو سهل بن حنيف، وخطب الناس وحثهم على التجهُّز للقتال، ثم خرج من المدينة واستخلف عليها قثم بن عباس. ويقال: إن الحسن قال له: يا أبت دعِ هذا فإنَّ فيه سفك دماء المسلمين. فلم يقبل منه ذلك.. ومن شعره رضي الله عنه:

قد عرف الحرب العوان إني
بازل عامين حديث سن

سنحنح[1] الليل كأني جني
أستقبل الحرب بكل فن

معي سلاحي ومعي مجني
وصارم يذهب كل ضغن

أقصي به كل عدو عني
لمثل هذا ولدتني أمي

وله:

نحن الكرام بنو الكرام
وطفلنا في المهدي يكنى

أنا إذا قصد اللئام
على بساط العزّ قمنا

(١) سنحنح الليل: أي لا أنام الليل، فأنا مستيقظ دائماً كأني جني.

وينسب إليه:

الدهر أدبني واليأس أغناني
والقوت أقنعني والصبر رباني

وأحكمتني من الأيام تجربة
حتى نهيت الذي قد كان ينهاني

○○○○○

علي بن أبي طالب يفاخر معاوية

من المعروف تاريخياً أنه قد حصل بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين معاوية بن سفيان رضي الله عنه خلاف أدّى إلى تجريد السلاح واستخدامه استخداماً سقط بفعله عدد كثير من القتلى الموالين لكل منهما.. والسبب في ذلك والله أعلم يعود إلى مطالبة معاوية بدم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقتل من قتلوه.

وتذكر المراجع التاريخية التي تعنى بأخبار من سلف من الأمم الشيء الكثير مما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من تقاول وتفاخر. من ذلك ما نقله أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري. المتوفى ببغداد سنة ٣٣١ من الهجرة في كتابه «المجتنى» من تفاخر حصل بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. حيث قال: أخبرنا محمد قال: أخبرنا أبو معاذ عن دماذ عن أبي عبيدة قال: كتب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أبا الحسن! إن لي فضائل كثيرة. كان أبي سيداً في الجاهلية، وصرت ملكاً في الإسلام وأنا صهر رسول الله ﷺ، وخال المؤمنين، وكاتب الوحي.. فقال علي كرم الله وجهه: أبالفضائل تفخر على ابن آكلة الأكباد! ثم قال: اكتب يا غلام:

محمد النبي أخي وصهري
وحمزة سيد الشهداء عمي

وجعفر الذي يمسي ويضحي
يطير مع الملائكة ابن أمي

وبنت محمد سكني وعرسي
مسوط لحمها بدمي ولحمي

وسبط أحمد ولداي منها
فأيكم له سهم كسهمي

سبقتكم إلى الإسلام طراً
صغيراً ما بلغت أوان حلمي

فقال معاوية: أخفوا هذا الكتاب لا يقرأه أهل الشام فيميلوا إلى ابن أبي طالب. وهذه الأبيات التي حققها صاحب «المجتنى» لعلي كرم الله وجهه لم أجدها ضمن ما جمعه الأستاذ عبد العزيز الكرم من شعر لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وطبعه عام ١٣٨٠هـ، ومما جاء في ذلك الديوان من افتخار لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله من قصيدة له:

اللّه أكرمنا بنصر الإسلام
وبنا أقام دعائم الإسلام

ويزورنا جبريل في أبياتنا
بفرائض الإسلام والأحكام

فنكون أول مستحل حله
ومحرم للّه كل حرام

○○○○○

مما يؤثر عن علي رضي الله عنه في الحكمة

لقد أصدرت مطبعة كرم ومكتبتها بدمشق كتيباً ضمنته ألف كلمة نسبتها جميعها إلى علي كرم الله وجهه. من هذه الكلمات قوله رضي الله عنه: خير القلوب أوعاها. وقوله: المعتذر من غير ذنب يوجب على نفسه الذنب. وقوله: دع الكذب تكرماً إن لم تدعه تأثماً. وقوله: لا تصحب الشرير فإن طبعك يسرق من طبعه شراً وأنت لا تعلم. وقوله: موت الصالح راحة لنفسه، وموت الطالح راحة للناس. وقوله: إذ أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره فإنك تقف من مشورته على عدله وجوره وخيره وشره. وقوله: إياك وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول يروق منظره ويقبح أثره. وقوله: يا آدم احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى الموت فيها فلا تجده. وقوله: من أخطأه سهم المنية قيده الهرم. وقوله: ليس في البرق الخاطف مستمتع لمن يخوض في الظلمة. وقوله: مكارم الأخلاق عشر خصال: السخاء، والحياء، والصدق، وأداء الأمانة، والتواضع، والغيرة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والشكر. وقوله: لا يخطئ المخلص في الدعاء إحدى ثلاث: ذنب يغفر أو خير يعجل أو شر يؤجل. وقوله: على لسان المؤمن نور يسطع وعلى لسان المنافق شيطان ينطق. وقوله: اعمل بالحق ليوم لا يقضى فيه إلا بالحق. وقوله: شفيع المذنب إقراره وتوبته اعتذاره. وقوله: قصم ظهري رجلان: جاهل متنسك، وعالم متهتك.

ومن شعره رضي الله عنه قوله:

أجن بزهرة الدنيا جنونا
وأفنى العمر منها بالتأني

فلو أني صدقت الزهد فيها
قلبت لها ظهر المجن

وقوله:

عُدَّ من نفسك الحياء فصنها
وتَوقَّ الدنيا ولا تأمنها

إنما جئتها لتستقبل الموت
وأدْخِلْتها لتُخْرج منها

وقوله:

دنيا تجول بأهلها
في كل يوم مرتين

فغدوها لتجمُّع
ورواحها لشتات بين

وقوله:

يا أيها المرء فكن مفرداً
دهرك لا تأنس بإنسان

وجانب الناس وكن حافظاً
نفسك في بيت وحيطان

○○○○○

من أقوال علي رضي الله عنه وتوجيهاته

ذكر ابن دريد في كتابه «المجتنى» أقوالاً كثيرة.. قال إنها محفوظة من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.. ومن ذلك قوله: إنّ العكي حدَّث عن حاتم بن قبيصة المهلبي عن الكلبي قال: قال علي رضي الله عنه: «المعروف أفضل الكنوز وأحصن الحصون. لا يزهدنّك فيه كفر من كفرك فقد يشكرك عليه من يستمتع منه بشيء. وقد يدرك بشكر الشاكر ما يضيع الجحود الكافر».

وعن عقبة بن أبي الصهباء قال: لما ضرب ابن ملجم علياً رضي الله عنه دخل عليه الحسن وهو باكٍ فقال له: ما يبكيك يا بني! فقال: ما لي لا أبكي وأنت في أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا. فقال: يا بني، احفظ عني أربعاً، وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن. قال: وما هن يا أبت؟ قال: إن أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الحسب حسن الخلق. قال: يا أبت هذه الأربع فأعطني الأربع الأخير. قال: إياك ومصادقة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه يقرّب إليك البعيد ويبعّد عليك القريب، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه.

وروى عنه رضي الله عنه قوله: لله امرؤ عمل صالحاً، وقدم خالصاً، واكتسب مذخوراً، وبنى عرضاً، وأحرز عوضاً، كابر هواه، وكذّب مناه، وجعل الصبر مطية نجاته، والتقوى عدة وفاته.

ومما قاله رضي الله عنه من الشعر.. قوله من قصيدة له:

حلاوة دنياك مسمومةٌ
فلا تأكل الشهد إلا بسم

محامدك اليوم مذمومة
فلا تكسب الحمد إلا بذم

إذا تم أمر بدا نقصه
توق زوالاً إذا قيل تم

إذا كنت في نعمة فارعها
فإن المعاصي تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله
فإن الإله سريع النقم

وإن تعط نفسك آمالها
فعند مناها يحل الندم

فأين القرون ومن حولهم
تفانوا جميعاً وربي الحلم

وكن مؤسراً شئت أو معسراً
فما تقطع العيش إلا بهم

○○○○○

شيء من آثار وأخبار علي رضي الله عنه

ذكر ابن كثير أن الخطيب البغدادي قال: أخبرني علي بن القاسم، ووصل الرواية إلى جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «من أشقى الأولين»؟، قال علي: عاقر الناقة. قال: «من أشقى الآخرين؟»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «قاتلك»، وروى أن جندب بن عبد الله قال لعلي عندما ضرب بالسيف: يا أمير المؤمنين إن متَّ نبايع الحسن؟ قال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر. وقيل: إن آخر ما تكلم به: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾. ومما أوصى به رضي الله عنه قوله: الله الله في الأيتام، والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم، والله الله في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم، والله الله في الصلاة فإنها عمود الدين، والله الله في بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم، وعليكم بالتواصل والتباذل وإياكم والتدابر والتقاطع. ويروى أنه لما خرج رسول الله إلى تبوك استخلف علياً على المدينة، فقال علي: أتخلفني في النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي».. وقد روي أن عمران بن حطان امتدح ابن ملجم عندما قتل علي رضي الله عنه بقوله:

يا ضربة من تقي ما أراد بها
إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه
أوفى البرية عند الله ميزانا

فأي ميزان يكون وافياً بقتل رابع الخلفاء المهديين؟

وأورد صاحب كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي الأبيات التالية في رثاء علي ولم ينسبها لأحد:

ألا قل للخوارج أجمعينا
فلا قرَّت عيون الشامتينا

أفي شهر الصيام فجعتمونا
بخير الناس طراً انتعينا

قتلتم خير من ركب المطايا
وذللها ومن ركب السفينا

ومن لبس النعال ومن حذاها
ومن قرأ المثاني والمئينا

وكل مناقب الخيرات فيه
وحب رسول ربّ العالمينا

ومما قاله رضي الله عنه:

فلا المُعَزى بباق بعد ميِّته
ولا المُعَزيِّ ولو عاشا إلى حين

○ ○ ○ ○ ○

مما قاله علي رضي الله عنه في ذم الدنيا

الدنيا دار ممر إلى مقر، والناس فيها رجلان: رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها.

وقال رضي الله عنه: مثل الدنيا كمثل الحية ليّن مسها وفي جوفها السم النقع، يهوي إليها الصبي الجاهل، ويحذرها ذو اللب الحاذر.

وقال رضي الله عنه: الدنيا غرور حائل وزخرف زائل، وظل آفل، وسند مائل، تردي مستزيدها وتضر مستفيدها، فكم من واثق بها راكن قد أرهقته بإيباقها، وأعلقته بأرباقها، وأشربته خناقها، وألزمته وثاقها.

وقال رضي الله عنه: القلوب قاسية من حظها، لاهية عن رشدها، سالكة غير مضمارها كأن المعنى سواها.

وقال رضي الله عنه: إذا أقبلت الدنيا أقبلت على حمار قطوف، وإذا أدبرت أدبرت على البراق.

وقال رضي الله عنه: كل شيء يعصيك إذا أغضبته إلا الدنيا فإنها تطيعك إذا أغضبتها.

وقال رضي الله عنه: من كانت الدنيا همّه كثر في القيامة غمّه.

وقوله رضي الله عنه: واعجباً ممن يعمل للدنيا وهو يرزق فيها بغير عمل، ولا يعمل للآخرة وهو لا يرزق فيها إلا بعمل.

وقال رضي الله عنه: الدنيا طواحة فضاحة آسيَّة جراحة.

وقال رضي الله عنه: لا نعمة في الدنيا أعظم من طول العمر وصحة الجسد.

وقال رضي الله عنه: الدنيا جمة المصائب مرة المشارب لا تمتع صاحباً بصاحب.

وقال رضي الله عنه: إذا بلغ المرء من الدنيا فوق قدره تنكرت للناس أخلاقه.

وقال رضي الله عنه: اللهم لا تجعل الدنيا سجناً ولا فراقها علي حزناً، أعوذ من الدنيا تحرمني الآخرة، ومن أمل يحرمني العمل، ومن حياة تحرمني خير الممات.. ومن شعره رضي الله عنه.. في الدنيا قوله:

يا من بدنياه اشتغل
قد غره طول الأمل

الموت يأتي بغتة
والقبر صندوق العمل

ومما ينسب إليه رضي الله عنه:

هب الدنيا تساق إليك عفواً
أليس مصير ذاك إلى الزوال

وما ترجو لشيء ليس يبقى
وشيكاً ما تغيره الليالي

وقوله رضي الله عنه:

إنما الدنيا كظل زائل
أو كضيف بات ليلاً فارتحل

أو كطيف قد يراه نائم
أو كبرق لاح في أفق الأمل

وقوله رضي الله عنه:

أرى علل الدنيا علي كثيرة
وصاحبها حتى الممات عليل

لكل اجتماع من خليلين فرقة
وكل الذي دون الممات قليل

○ ○ ○ ○ ○

شيء مما حفظ
من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه

اهتم ابن دريد صاحب كتاب «المجتنى» بجمع أقوال الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، فكان مما جمعه من كلام علي رضي الله عنه.. أن رجلاً سأله عن تفسير «لا حول ولا قوة إلا بالله». فقال: تفسيرها: «إنا لا نملك مع الله شيئاً، ولا نملك إلا ما ملكنا مما هو أملك به منا، فمتى ما ملكنا ما هو أملك به كلفنا، ومتى أخذ منا وضع عنا ما كلفنا، إن الله أمرنا تخييراً، ونهانا تحذيراً، وأعطانا على قليل كثيراً، لن يطاع ربنا مكرهاً ولا يعصى مغلوباً».

ومما حفظ من كلام علي رضي الله عنه قوله: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة بطول أمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي، ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم، ويبغض الطالحين وهو منهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت له، إن سقم ظل نادماً وإن صح أمن لاهياً، يعجب بنفسه إذا عوفي ويقنط إذا ابتلي، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن، لا يثق من الرزق بما ضمن، ولا يعمل من العمل بما فرض عليه إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط ووهن، فهو من الذنب والنعمة موقر يبتغي الزيادة ولا يشكره.. يتكلف من الناس ما لم يؤمر به، ويضيع من نفسه ما هو أكثر، يبالغ إذا سأل ويقصر إذا عمل يخشى الموت ولا يبادر الفوت، ويستكثر

من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه، ويستكثر من طاعة ما يحقره من غيره، فهو على الناس طاعن.. ولنفسه مداهن، اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء.. يحكم على غيره لنفسه ولا يحكم عليها لغيره، وهو يطاع ويعصى ويستوفي ولا يوفي».

وقال رضي الله عنه في ذم الدنيا: أولها عناء وآخرها فناء. حلالها حساب وحرامها عقاب. من صح فيها أمن. ومن مرض فيها ندم. ومن استغنى فيها فتن. ومن افتقر فيها حزن. ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته. ومن نظر إليها أعمته. ومن نظر بها أبصرته... ويقابل هذه الأقوال من الشعر ما تضمنته القصيدة الزينبية المنسوبة إليه، والتي منها قوله رضي الله عنه:

صرمت حبالك بعد وصلك زينب
والدهر فيه تصرم وتقلب

ومنها قوله رضي الله عنه:

وعليك تقوى اللّه فالزمها تفز
إن التقى هو البهي الأهيب

واعمل لطاعته تنل منه الرضا
إن المطيع لربه لمقرب

فاقنع ففي بعض القناعة راحة
واليأس مما فات فهو المطلب

ومنها قوله رضي الله عنه:

إن الغنى من الرجال مكرم
وتراه يرجى ما لديه ويرهب

ويبش بالترحيب عند قدومه
ويقام عند سلامه ويقرب

والـفـقـر شـيــن لـلـرجـال فـإنـه
يـزري بـه الـشـهـم الأديـب الأنـسـب

ومنها قوله رضي الله عنه:

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا
إن الـكـذوب لـبـئـس خـلاً يـصـحـب

○○○○○

من الأقوال المعدودة لعلي رضي الله عنه

اقتطفت مطبعة كرم ومكتبتها أقوالاً في أعداد، لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، أذكر منها هنا قوله رضي الله عنه:

اثنان يهون عليهما كل شيء: عالم عرف العواقب، وجاهل يجهل ما هو فيه.

الكمال في خمس: أن لا يعيب الرجل أحداً بعيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه فإنه لا يفرغ من إصلاح عيب من عيوبه حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس، وأن لا يطلق لسانه ويده حتى يعلم أفي طاعة ذلك أم في معصية، وأن لا يلتمس من الناس ما لم يعطيهم من نفسه مثله، وأن يسلم من الناس باستشعار مداراتهم، وتوفيتهم حقوقهم، وأن ينفق الفضل من ماله ويمسك الفضل من قوله.

ثلاثة يؤثرون المال على أنفسهم: تاجر البحر، وصاحب السلطان، والمرتشي في الحكم. ثلاثة أشياء لا دوام لها: المال في يد المبذر، وسحابة الصيف، وغضب العاشق. خير الدنيا والآخرة في خصلتين: الغنى والتقى. وشر الدنيا والآخرة في خصلتين: الفقر، والفجور. ثمانية إذا ذهبوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الآتي طعاماً لم يُدْعَ إليه، والمتآمر على رب البيت في بيته، وطالب المعروف من غير أهله، والداخل بين اثنين لم يدخلاه والمستخف بالسلطان، والجالس مجلساً ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه، ومن جرب المجرب.

الجاهل يعرف بست خصال: الغضب من غير شيء، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضعها، وأن لا يعرف صديقه من عدوه،

وإفشاء السر، والثقة بكل أحد الذي يستحق اسم السعادة على الحقيقة. سعادة الآخرة وهي أربعة أنواع: بقاء بلا فناء، وعلم بلا جهل، وقدرة بلا عجز، وغنى بلا فقر.

ومما ينسب إليه من المشتمل على الأعداد:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الأسفار ذل ومحنة
وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد

فموت الفتى خير له من قيامه
بدار هوان بين واش وحاسد

ولما قتل رضي الله عنه عمرو بن عبد ود قال:

كانوا على الإسلام ثلاثة
فقد برز من تلك الثلاثة واحد

وفرّ أبو عمرو هبيرة لم يعد
لنا وأخو الحرب المجرب عائد

نهتهم سيوف الهند أن يقفوا لنا
غداة التقينا والرماح المصائد

ويروى أنه رضي الله عنه لما هاجر من مكة إلى المدينة ومعه الفواطم أدركه الطلب، وهم ثمانية فوارس، فشدَّ عليهم بسيفه شدّة ضيغم وهو يقول:

خلو سبيل الجاهد المجاهد
آليت لا أعبد غير الواحد

علي بن أبي طالب يبارز عمرو بن عبد ود ويقتله

يعد عمرو بن عبد ود من صناديد العرب وشجعانهم، ولما كان يوم الخندق نادى يطلب من يبارزه فقام علي وهو مقنع بالحديد فقال: أنا له يا رسول الله. فقال النبي: «اجلس إنه عمرو». ثم نادى عمرو وجعل يقول للمسلمين: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟ فقام علي، فقال: أنا له يا رسول الله. فقال له النبي: «اجلس إنه عمرو»، ثم نادى الثالثة وقال:

ولقد بححت من الندا
بجمعكم هل من مبارز

ووقفت إذ جبن المشجـ
ـع وقفة الرجل المناجز

وكذاك إني لم أزل
متسرعاً نحو الهزاهز

إن الشجاعة في الفتى
والجود من خير الغرائز

فقام علي وقال: أنا له يا رسول الله، فقال النبي: «إنه عمرو». فقال علي: وإن كان عمرو. فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه علي وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتا
ك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نـــيـــةٍ وبـــصـــيـــره
والـصـدق مـنـجـى كـل فـائـز

إنـــي لأرجـــو أن أقـــ
يـم عـلـيـك نـائـحـة الـجـنـائـز

مـــن ضـــربـــة نـــجـــلاء يـــبـــ
قـى ذكـرهـا عـنـد الـهـزاهـز

فقال عمرو: من أنت، قال علي: أنا علي بن أبي طالب. قال عمرو: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك فإني أكره أن أهريق دمك. فقال علي: لكنني والله ما أكره أن أهريق دمك. فغضب عمرو ونزل من على فرسه وسلَّ سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضباً فاستقبله علي رضي الله عنه بدرقته، فضربه عمرو فيها فقدَّها، وأثبت فيها السيف وأصاب رأس علي فشجه، وضربه علي على حبل العاتق فسقط وثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التكبير فعرف أن علياً قتله.

○○○○○

صفة قتل علي رضي الله عنه

ذكر ابن كثير أنه بعد يوم النهروان الذي تم فيه النصر لعلي على الخوارج أخذ الخوارج في التخطيط لقتل علي ونفر من الصحابة، فكان أن اجتمع ثلاثة منهم، وهم: عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم، وقال: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البرك بن عبد الله التميمي: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر التميمي: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص. فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسمّوها. وتواعدوا لسبع عشر من رمضان أن يبيّت كل واحد منهم صاحبه في بلدة الذي هو فيه. وسار ابن ملجم إلى الكوفة فدخلها وكتم أمره حتى عن أصحابه الخوارج. ورأى امرأة يقال لها: قطام بنت الشجنة، كان علي قد قتل أباها وأخاها يوم النهروان، وكانت ذات جمال فائق فسلبت عقله وخطبها إلى نفسه، واشترطت شروطاً منها: قتل علي. فقال: ما جئت إلى هذا البلد إلا لقتله. فتزوجها وندبت له رجل من قومها يقال له: وردان، ليكون معه واستمال هو رجلاً آخر يقال له: شبيب بن نجدة الحروري، ولما جاءت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان عام ٤٠، وهو اليوم المتفق عليه جاء هو ورفيقاه مشتملين سيوفهم فجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي، فلما خرج ثار إليه شبيب بالسيف وضربه، ثم أعقبه ابن ملجم فضربه بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته فكان مصداقاً لرده على الخوارج حينما قالوا له: اتق الله فإنك ميت، فقال لهم: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ولكن مقتول من ضربة على هذه تخضب هذه وأشار بيده إلى لحيته، عهد معهود وقضيً مقضي وقد خاب

من افترى. ثم نادى عليّ: عليكم به فقتل وردان، ونجا شبيب، ومسك ابن ملجم. وقال عليّ: إن مت فاقتلوه وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به. ومات رضي الله عنه ليلة الأحد لأحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٤٠ عن ٦٣ سنة. أما ابن ملجم فقيل: إن الحسن قتله. وقيل: إنه عزر به فقطعت يداه ورجلاه ولسانه ثم قتل وحرق.. شيء من شعر علي رضي الله عنه، وقيل: إنما هو منسوب إليه:

إلـــهـــي أنـــت ذو فـــضـــل ومـــنٍّ
وإنـــي ذو خـــطـــايـــا فـــاعـــف عـــنـــي

وظـــنـــي فـــيـــك يـــا ربـــي جـــمـــيـــل
فـــحـــقِّـــق يـــا إلـــهـــي حـــســـن ظـــنـــي

إلـــهـــي لا تـــعـــذبـــنـــي فـــإنـــي
مـــقـــر بـــالـــذي قـــد كـــان مـــنـــي

فـــمـــا لـــي حـــيـــلـــة إلا رجـــائـــي
بـــعـــفـــوك إن عـــفـــوت وحـــســـن ظـــنـــي

فـــكـــم مـــن زلـــة لـــي فـــي الـــخـــطـــايـــا
عـــضـــضـــت أنـــامـــلـــي وقـــرعـــت ســـنـــي

يـــظـــن الـــنـــاس بـــي خـــيـــراً وإنـــي
لـــشـــر الـــخـــلـــق إن لـــم تـــعـــف عـــنـــي

وبـــيـــن يـــدي مـــحـــتـــبـــس طـــويـــل
كـــأنـــي قـــد دعـــيـــت لـــه كـــأنـــي

وله أيضاً:

سوف يبقى الحديث بعدك فانظر
أي أحـــدوثـــة تـــحـــب فـــكـــنـــهـــا

خلفاء رسول الله يؤنبون طلحة بن عبيد الله

أبو بكر وعمر وعثمان يؤنبون طلحة بن عبيد الله قسوته على خادمه:

روى أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتابه «الكامل» أن العُتْبي حدَّثه في إسناد ذكره. قال: دعا طلحة بن عبيد الله أبا بكر وعمر وعثمان رحمة الله عليهم فأبطأ عنه الغلام بشيء أراده، فقال طلحة: يا غلام. فقال الغلام: لبيك.. فقال طلحة: لا لبيك. فقال أبو بكر: ما يسرني أني قلتها وأن لي الدنيا وما فيها.. وقال عمر: ما يسرني أني قلتها ولي نصف الدنيا، وقال عثمان: ما يسرني أني قلتها ولي حمر النعم. قال: وصمت عليها أبو محمد «طلحة بن عبيد الله»، فلما خرجوا من عنده باع ضيعته بخمسة عشر ألف درهم فتصدق بثمنها.

وحول هذا المعنى قال بعض الشعراء، ومنهم الحسن التنوخي:

لولا ملاحظة الكبير صغيره
ما كان يعرف في الأنام كبير

وقال شوقي:

لا يُظهرُ الكبراء آية عزهم
حتى يعزوا آية الأفكار

وقال صفي الدين الحلّي:

وأغزر الناس عقلاً من إذا نظرت
عيناه أمراً غدا بالغير معتبرا

وقال آخر:

لا يحسن الحلم إلا في مواطنه
ولا يليق الوفاء إلا لمن شكرا

وأورد البصيري في حماسته قول بشر بن الحارث، وقال إنه يروى لمرة بن عمرو الخزاعي:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
والمنكرون لكل أمر منكر

وقال محمد بن علي الشوكاني:

إن للّه في العبادة رجالاً
قد صفوا من شوائب التكدير

وقال أحدهم:

ولا تحقر المزدرى في العيون
فكم نفع الْهَيّنُ المزدرا

وقال آخر:

ومن قيد الألفاظ عند نزاعها
بقيد النهي أغنته عن طلب العذر

○ ○ ○ ○ ○

نساء بشرن بالجنة

وكما أن هناك رجال بشَّروا بالجنة فإنَّ هناك نساءاً بشرن بالجنة وهن: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون. ومريم ابنة عمران. وفاطمة بنت محمد ﷺ. وخديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ.. وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهي إحدى زوجات النبي ﷺ. وقد ورد فيما فضّلهن الله به على سائر بنات جنسهنّ أحاديث شريفة، منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «سيدات نساء الجنة مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية، ثم عائشة».

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

ومنهن ما ورد فيه قرآن، ففي آسية امرأة فرعون جاء قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]. أما مريم فقد سميت سورة من سور القرآن باسمها، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢]. أما خديجة رضي الله عنها فقد جاء تبشيرها بالجنة في حديث شريف؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشِّرها ببيت بالجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب». أما عائشة فقد جاء في تبرئتها من حديث الإفك الذي

روَّج حولها حتى اشتهر قرآناً يتلى. قال تعالى في سورة النور، الآية ١١: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾...

وقد كان حسان بن ثابت ثالث ثلاثة أفصحوا بالفاحشة وهم: مسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، وهي أخت زينب زوجة رسول الله.. فلما نزلت تلك الآية الكريمة التي برأتها مما قيل فيها اعتذر حسان مما بدا منه. وقال ممتدحاً عائشة رضي الله عنها:

حصان رزان ما تُزنُّ بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
خليلة خير الناس ديناً ومنصباً
نبي الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حيّ من لؤي ابن غالب
كرام المساعي مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله ضيمها
وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم
فلا رفعتْ سوطي إليّ أناملي
وإن الذي قد قيل ليس بلائط
بها الدهر بل قول امرئ بي ما حل
فكيف وودّي ما حييت ونصرتي
لآل نبي اللّه زين المحافل

ومنها قوله:

رأيتك وليغفر لك اللّه حُرّة
من المحصنات ذات غوائل

موعظة من بهلول

للبهاليل حكايات غريبة وعجيبة، ولهم مواقف فيها عبر واعتبار، وكلام يفيض بالحكمة وصدق التعبير.

والحكيم يتخذ من البهاليل، ومن القول على ألسنتهم، لوحة تعبيرية يرسم عليها ما يراه مناسباً لأذواق الآخرين.. فهو عندما يخطر بباله خاطرة، ويتطلب أن يكون لعرضها شخصية تفرض بطبيعتها القناعة لدى الآخرين وذلك بما تقوم به من أدوار على خشبة مسرح الحياة فيها من الهزل ما يجعلها تعلق بالذاكرة، لا يجد شخصية مناسبة غير شخصية البهلول، فيقول على لسانه ما قد خطر بباله، ومصداقية ذلك أنه قلما يذكر زمن أو اسم البهلول الذي يقال عنه أنه قال كذا وكذا أو سئل عن كذا فأجاب بكذا.. وأقرب مثال على ذلك هذه الحكاية ونصها:

روى الشبلي فقال: كان بهلول يركب قصبة وبيده مقرعة، وهو يعدو فسأله إلى أين؟ فقال: إلى العرض على الله عزَّ وجلَّ. قال: فجلست حتى رجع، وقد انكسرت القصبة، واحمرّت عيناه من البكاء. فقلت له: ما كان منك؟. قال: وقفت بين يديه على أن يكتبني من الخدام، فلما عرفني طردني. قلت: هذا القول من بهلول.. قول عارف محب مقبول، صدر عن قلب حزين بالخوف مشغول:

ثم أنشد:

عرضنا على المولى ونحن عبيده
فـمـنـا شـقـي رده وسـعـيـد



فمن كان ليس يصلح خادماً
فمن بابه بالطرد ذاك بعيد

حبيب له جاه عريض ورفعة
ومجد على مر الجديد جديد

أولئك خدام كرام وسادة
ونحن عبيد السوء بئس عبيد

فيا غبننا يوم التغابن عندما
يقابلهم وعد ونحن وعيد

ترى الناس إلا هم سكارى وما هم
سكارى ولكنّ العذاب شديد

تحيط بنا الأهوال من كل جانب
إلى أن كأنا بالعقار نميد

ولا فزع يحزنهم بل بقربه
لهم فرح يحل هناك وعيد

○○○○○

الحسن بن زيد
ينهى ابن هرمة عن شرب الخمر

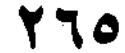
ما من شك في أن تطبيق الأحكام الشرعية ضمان لمصلحة البرية.. كيف لا والشرع ما نهى عن شيء إلا وفي تركه منفعة وفائدة خاصة لتاركه وعامة للمجتمع، وما أمر بشيء إلا وفي تركه مضرة على النفس والبدن والعقيدة، وفي إتيانه واتباعه الصلاح والفلاح والنجاح.

يروى أن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب لما ولي المدينة لأبي جعفر المنصور قال لابن هرمة: إني لست كمن باع لك دينه رجاء مدحك أو خوف ذمك، قد أفادني الله بولادة بيّنة الممادح، وجنبني المقابح.. وإن من حقه عليّ ألا أغضي على تقصير في حقه.. وأنا أقسم بالله لأن أُتيتُ بك سكران لأضربنّك حدّين: حداً للخمر، وحداً للسكر. ولأزيدنّ لموضع حرمتك بي. فليكن تركها لله تُعَنْ عليه. ولا تدعها للناس فتوكل إليهم. فنهض إبراهيم بن هرمة وهو يقول:

نهاني ابن الرسول عن المدام
وأدبني بآداب الكرام

وقال لي اصطبر عنها ودعها
لخوف اللّه لا خوف الأنام

وكيف تصبّري عنها وحبّي
لها حبٌّ تمكن في عظامي



أرى طيب الحلال عليّ خبثاً
وطيب النفس في خبث الحرام

ومما قاله الشعراء في هذا المعنى. قول أحدهم:

فمن نهاك إذا يوماً رآك على
عيب فهذا محب فاتخذه حما

وقال آخر:

إذا المرء لم يحكم على النفس قادراً
يمت غير مأجور ويحيا مذمما

وقال آخر:

وكل أناس يحفظون حريمهم
وليس لأصحاب النبيذ حريم

وقال آخر:

واعلم بأنك إن لم تصطبر كرماً
صبرت قهراً على ما خط بالقلم

○ ○ ○ ○ ○

شيء من أخبار الشماخ بن ضرار

ذكر أبو فرج الأصبهاني في «الأغاني» أنَّ اسمه الشماخ بن ضرار بن سنان بن أمية أنهى نسبه إلى سعد بن ذبيان. ثم قال: والكوفيون يقولون هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن صفي بن أياس، أنهوا نسبه إلى ريث بن غطفان. وقال الزركلي في «الأعلام»: وهو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني.. قال الحطيئة: أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان واعْتُبر الشماخ أوصف الناس للحمير الوحشية، ولهذا قال الوليد بن عبد الملك: إني لأحسب أحد أبويه حماراً. وقيل: هو أوصف الناس للقوس، ويروى أن الشماخ كان هجاءً فهو يهجو قومه ويهجو ضيفه. وقيل: إنه أرجز الناس على البديهة. وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. وأمه أنمارية من بنات الخرشب، ويقال: إنهن أنجب نساء العرب واسمها معاذة بنت بجير بن خالد.. وذكر الأستاذ صلاح الدين الهادي في ترجمة ديوان الشماخ أنه عُرف من تاريخ حياة الشماخ أنه اشترك في موقعة القادسية وفي فتح أذربيجان ولم يُر لذلك أثر في شعره. وللشماخ أخوان من أمه وأبيه شاعران أحدهما مزرد ذكر الأصبهاني أنه مشهور وأن اسمه يزيد والآخر اسمه جزء. ويروى أن مزرد قال لأمه: كان كعب بن زهير لا يهابني وهو اليوم يهابني. فقالت: يا بنيَّ نعم إنه يرى جرو الهراش موثق ببابك تعني أخاه الشماخ. ويروى أن أمهما معاذة قالت لهما: لقد عرضتماني لشعراء العرب الحطيئة وكعب بن زهير. فقالا: كلا لا تخافي. فقالت: فما يؤمنني؟ قالا: إنك ربطتِ ببابك جروي هراش لا يجترئ أحد عليهما ـ يعنيان أنفسهما ـ، ويقول الشماخ في إحدى قصائده التي يصف فيها مطاردته الصيد:

تروَّحا من سنام العرق فالنبطا

إلى القنان التي فيها المداحيل

إذا استهلَّا بشؤبوب فقد فُعِلتْ

بما أصابا من الأرض الأفاعيل

فصادفا البَيْضَ قد أبدت مناكبها

منه الرئال لها منه سرابيل

فصادفا البَيْضَ عن بشر

كأنه ورق البسباس مغسول

كأن رجلي على حقباء قاربة

أحمى عليها الأبانَيْن الأراجيل

حامت ثلاث ليال كلما وردت

زالت لها دونه منهم تماثيل

قد وكَّلتْ بالهدى إنسان صادقه

كأنه من تمام الظمإ مسمول

فأيْقنت أن ذا هاشٍ منَّيتها

وإن شرقيَّ إحليَّاء ومشغول

○ ○ ○ ○ ○

نصر بن حجاج
في قفص الاتهام أمام مجاشع السلمي!!

في موضوع سابقٍ عنوانه: «عمر بن الخطاب يحقق مع الذلفاء. ونصر بن حجاج» ذكرت أن عمر عفا عن الذلفاء لثبوت عفتها لديه.. وأنه رضي الله عنه خيّر نصراً في أي بلدة يشاء، حيث قرر عدم بقائه في المدينة، فاختار البصرة، فأركبه جملاً وسيره إلى البصرة، وكتب به إلى مجاشع بن مسعود السلمي بأني قد سيرت نصر بن حجاج السلمي إلى البصرة.

وتذكر الرواية أن نصراً أحب شميلة امرأة مجاشع.. قال المدائني: إن عمر لما أخرج نصراً من المدينة إلى البصرة، قال نصر: يا أمير المؤمنين أعلمهم أنك إنما أخرجتني لجمالي، وجمال شعر لا لغيره.. وروي عن قتادة أن نصراً لما أتى البصرة دخل مجاشع بن مسعود عائداً له وعنده شميلة بنت جنادة بن أبي أزيهر فجرى بينهما كلام ولم يفهم منه مجاشع إلا كلمة واحدة من نصر: قال: وأنا.. فلما خرج نصر قال لها: ما قال لك؟ قالت: قال لي: كم لبن ناقتكم هذه فأخبرته.. قال: ما هذا جواب كلامه.. وأرسل إلى نصر فسأله وأعظم عليه. فقال: قالت لي: إني أحبك حباً شديداً لو كان فوقك لأظلك، ولو كان تحتك لأقلك. فقلت: وأنا، قال مجاشع: فأنزل لك عنها؟ قال نصر: أذكرك الله أن يبلغ هذا عمر مع ما فعل بي.. وأما العامة فيقولون: كتبت له في الأرض هذا الكلام. فقال: وأنا. فسمعها مجاشع فلما خرج نصراً كب قعباً على الكتاب ودعا من قرأه، قال الزجاج:

وبعدما قرأ خطهما التفت إلى نصر فقال: يا ابن أخي: إن يكن الطلاق ثلاثاً فهي طالق ألفاً. فقال نصر: وهي طالق إن جمعني وإياها بيت أبداً. ثم ارتحل إلى فارس. وأضاف الزجاج إلى قوله أن امرأة مجاشع كانت يقال لها: خضراء بني سليم، وكانت من أجمل النساء وهي أول من لبس الشفوف.

ومما رواه المدائنيُّ حول هذا الموضوع أن نصراً أقام بالبصرة حولاً ثم كتب بعد الحول إلى عمر رضي الله عنه:

لعمري لأن سيرتني أو حرمتني
وما نلت ذنباً إن ذا لحرامُ

وما لي ذنب غير ظن ظننته
وفي بعض تصديق الظنون أثامُ

أإن غنت الحوراء ليلاً بمنية
وبعض أمانيّ النساء غرام

ظننت بي الظن الذي ليس بعده
بقاء وما لي في النّديّ كلام

وأصبحت منفياً على غير ريبة
وقد كان لي بالمسكنين مقام

ويمنعني مما تظن تكرّمي
وآباء صدق سالفون كرام

ويمنعها مما تمنّتْ صلاحها
وطول قيامٍ ليلها وصيام

فهاتان حالانا.. فهل أنت راجعي
وقد جبّ مني كاهل وسنام

قال الجاحظ: ردّه عمر بعد هذه الأبيات لما وصف له من عفته.. وقال إسماعيل بن هبة الله الموصلي في كتاب «غاية السائل إلى معرفة الأوائل»: فلما وصلت الأبيات إلى عمر ونظر فيها كتب إلى أبي موسى الأشعري وأمره بالوصاة به أن أحب أن يقيم بالبصرة وإن أحب الرجوع إلى المدينة فذاك إليه.. قال: فاختار الفتى المقام بالبصرة، فلم يزل مقيماً بها إلى أن خرج أبو موسى إلى محاربة أهل الأهواز فخرج معه نصر بن حجاج في الجيش، وحضر معه فتح تُستر..

○ ○ ○ ○ ○

واصل بن عطاء رأس المعتزلة

جاء في كتاب «الملل والنحل» لأبي الفتح محمد الشهرستاني. إن واصل بن عطاء الغزال الألثغ ويكنى بأبي حذيفة ويلقب بالغَزّال.. كان يلازم الغزالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن. وكان تلميذاً للحسن البصري في أيام عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وصار رئيساً للمعتزلة بسبب أن رجلاً جاء الحسن البصري وعنده واصل فقال الرجل: لقد ظهرت جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن في ذلك. وقبل أن يجيب، قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً؛ بل هو في منزلة بين منزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة.. وقال في تقريره: إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً وهو اسم مدح، والفاسق لم يستجمع خصال الخير، وما استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً وليس هو بكافر مطلقاً أيضاً؛ لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها. وقوله: إن أحد الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين مخطئ لا بعينه. وقوله في عثمان وقاتليه وخاذليه أن أحد الفريقين فاسق لا محالة.. وأقوال كثيرة أنكرها أئمة المسلمين وشعراء الإسلام، يقول الأمير الصنعاني:

نعم قد قضى ربي بما هو كائن
بهذا أقام اللّه جل الأدلة

وكفرك مما قد قضاه كما قضى
بأفعاله في خلقه للبرية

ما سدَّ عنك الباب كلا وإنما
آتاك اختياراً وهو أعظم حجة

فأنت سددت الباب جهلاً وضلة
كما صنع الضلال في باب حطة

كذبت بأن اللّه قال: ارض بالقضاء
أيأمر أن ترضى بكفر وضلة

بلى قال لا تكفر بأمر بالذي
نهى عنه هذا منك أعظم فرية

وصرح في الذكر المبين بنفسه
رضاه به فانظره في خير سورة

إلى أن قال:

وما شاء منك الكفر قط وإن قضى
به فالقضاء ليس اختيار المشيئة

○ ○ ○ ○ ○

جهم بن صفوان رأس المعطلة

جاء في كتاب «الملل والنحل» لأبي الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني. إن جهم بن صفوان كان من الجبرية الخالصة ومن تلامذة الجعد بن درهم وقد ظهرت بدعته بترمذ وقتله سلم بن أحوز المازني وقيل: قتله نصر بن سيار سنة ١٢٨هـ، في آخر ملك بني أمية، وقد وافق جهم المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء منها قوله: لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقضي تشبيهاً، فنفى كونه حياً عالماً، وأثبت كونه قادراً فاعلاً، خالقاً؛ لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق.

ومنها قوله في القدرة الحادثة: إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له، ولا إرادة ولا اختيار وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات؛ كما يقال: أثمرت الشجرة وجرى الماء إلى آخره.

ومنها قوله: إن حركات أهل الخالدين تنقطع والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما وتلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بجحيمها.

ومنها قوله: من أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده؛ لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد فهو مؤمن. قال: والإيمان لا يتبعض أي لا ينقسم إلى عقد وقول وعمل ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد إذ المعارف لا تتفاضل..



وأقواله هذه هي قمة التعطيل والزندقة، وقد تم نقض أقواله بالحجج الدامغة وتولاه الشعراء بالمساءلة. ومنهم الأمير الصنعاني محمد بن إسماعيل الذي يقول:

وسبق القضاء لا يقتضي الجبر هل ترى
إلـهـك مـجـبـوراً لـسـبـق الـقـضـيـة

فـإن قـضـاه سـابـق كـل كـائـن
لأفـعـالـه قـطـعـاً وفـعـل الـبـريـة

ومـا أحـد يـنـفـي اخـتـيـار مـكـلـف
سـوى جَـهـم الآتـي بـكـل عـجـيـبـة

ومن قال فعل العبد كسب فقد نجا
وإن كان هذا الكسب في بطن خفية

ولـكـنـهـم فـارقـوا جـهـمـاً الـذي
يـقـول بـأن الـعـبـد كـالـشـجـر الـتـي

تـمـيـلـهـا ريـح تـهـب بـدوحـهـا
تـمـيـل بـهـا الأغـصـان فـي كـل هـبـة

فـلا تـدعـهـم جـبـريـة بـعـد هـذه
وانـصـف وجـانـب كـل ذي عـصـبـيـة

ولـو كـان هـذا الـسـبـق عـذراً لـكـافـر
إذاً عـذر الـكـفـار بـاري الـبـريـة

○○○○○

فُجْر.. النَّظام

ذكر محمد الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» . . إن إبراهيم بن سيار بن هاني النظام زاد على القول بالقدر خيره وشره منا. وأنه قال: إن الله ليس موصوفاً بالإرادة على الحقيقة. وقال: ليس الإجماع حجة في الشرع. ولا القياس في الأحكام الشرعية حجة وإنما الحجة في قول الإمام المعصوم. وأوقع في كبار الصحابة بقوله: لا إمام إلا بالنص والتعيين. وقال: إن عمر رضي الله عنه كتم نص النبي على علي رضي الله عنه. وقال زوراً: إن عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت الجنين من بطنها، وصاح بإحراق دارها بمن فيها، وقوله في عثمان رضي الله عنه بأنه ردَّ الحكم بن أمية وهو طريد الرسول. ونَفْيه أبا ذر إلى الزبدة إلى آخر ما جاء به من الأكاذيب التي لا تستند إلى حقيقة ولا داعي إلى ذكرها. وقال: إن من خان في مائة وتسعة وتسعين درهماً بالسرقة أو الظلم لم يفسق بذلك حتى تبلغ خيانته نصاب الزكاة وهي مائتا درهم فصاعداً فحينئذٍ يفسق. وقال: إن الله تعالى لا يقدر على ظلم العقلاء، وإنما يوصف بالقدرة على ظلم الأطفال والمجانين. وزعم أن للخلق خالقين أحدهما: قديم وهو الله، والثاني محدث وهو المسيح. فتعالى الله عما يقول علواً كبيراً. والغريب في الأمر أن د .محمد عزيز نظمي سالم ذكر في كتابه «أعلام الثقافة الإسلامية» الذي خصصه للحديث عن النّظام نقلاً عن ابن المرتضى، أن النّظام قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أقصر في توحيدك. اللهم ولا أعتقد مذهباً إلا سنده التوحيد. اللهم إن كنت تعلم ذلك فاغفر لي ذنبي وسهل عليَّ سكرات الموت. وحكى أنه مات لساعته لصدق ورعه

وصلاحه. وما تُرك النّظام الذي توفي عام ٢٣١، سمي بهذا الاسم لكونه ينظم الخرز في سوق البصرة، وليس كما قيل بأنه نظاماً للكلام المنثور والشعر الموزون، يطلق لسانه تبعاً لهواه، فقد تصدى له ومن قال بقوله: أئمة المسلمين وشعرائهم وفيما يقرب من معنى هذا الموضوع. قال أبو العلاء المعري:

رأيت جماعاتٍ من الناس أولعت
بإثبات أشياء استحال ثبوتها

فقد أخبرت عن غيّها سنواتها
كما أخبرت آحادها وسبوتها

وما هي إلا النار توقد مرة
فتذكو وتاراتٍ يحين خبوتها

وقال:

كأن قلوب القوم منا جنادل
فليس لها عند الأمور حصاة

إذا ما ادَّعوا للّه خوفاً وطاعة
فلا ريب أن المدعين عُصاة

وأوصاهم أهل الأمانة والتقى
مما حفظت بعد المغيب وصاة

وقال:

كأننا في قفار ضل سالكها
نهج الطريق وما في القوم خرِّيت

لو ينطق الليل نادى كم فرى ظُلمي
فجر وأُدلجتُ في حاجٍ وأُسْريتُ

زندقة.. غيلان الدمشقي

جاء في كتاب «الرد على الجهمية والزنادقة» للإمام أحمد بن حنبل تحقيق الدكتور: عبد الرحمن عميرة: إن غيلان بن أبي غيلان الدمشقي، وقيل: غيلان بن مسلم. كان من البلغاء والكتاب وأنه قد آمن بنبوة الحرث الكذاب، ولما قتل الحرث قام مقامه. وروي أنه أخذ عن معبد الجهمي بدعة القدر. وهي تتلخص في آرائه القائلة (العبد قادر على أفعال نفسه، وأن الإيمان معرفة وقول، والعمل ليس داخلاً فيه. وأن القرآن مخلوق)، فلما بلغ هشام بن عبد الملك مقالته هذه أرسل إليه وسأله ما هذه المقالة التي بلغتني عنك في القدر؟ فقال له غيلان: هو ما بلغك. فأحضر من أحببت يحاجني، فإن غلبني ضَرَبْتَ عنقي. فأحضر له الأوزاعي فخيره الأوزاعي في عدد المسائل التي سيناظره فيها بقوله: يا غيلان إن شئت ألقيت سبعاً، وإن شئت خمساً وإن شئت ثلاثاً؟ قال غيلان: ألق ثلاثا. فقال الأوزاعي: أقضى الله على عبد ما نهى عنه؟ قال غيلان: ما أدري ما تقول؟ قال الأوزاعي: أفأمر الله بأمر حال دونه؟ قال غيلان: هذه أشد من الأولى. قال الأوزاعي: أفحرم الله حراماً ثم أحله؟ قال غيلان: ما أدري ما تقول! فضربت عنق غيلان.

يقول نجيب المستاوي:

لست أنسى مزية العلم لكن
هل بغير الإيمان شرطاً تُثبت

إن أردتم أيها القوم فوزاً
فطريق التوحيد للفوز أدت

وهي في زحمة المذاهب أضحت
وعرة. صعبة. وبالهول حفت

ويقول أبو العلاء المعري:

ألا تتقون اللّه رهط مسلَّم
فقد جُرتمُ في طاعة الشهوات

ولا تَتْبعُو الشيطان في خطواته
فكم فيكم من تابع الخطوات

عدتم لرأي المثنويه بعدما
جرت لذة التوحيد في اللهوات

ويقول أيضاً:

أصُمْتَ الشهور فهلَّا صمتَّ
ولا صوم حتى تطيل الصموتا

يلاقي الفتى عيشه بالضلال
ويبقى عليه إلى أن يموتا

○ ○ ○ ○ ○

سعد بن أبي وقاص
يثأر من ساخر بسلمان، وصهيب، وبلال

روي أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص دخل المسجد ليصلّي في عهد الرسول ﷺ فوجد سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي مجتمعين في حلقة يتحدثون، فدخل سعد في الصلاة وبينما هو في صلاته سمع أعرابياً يقول لهم ساخراً: تحلقتم يا معشر العلجة كأنكم من الأوس والخزرج. فهال سعد ما سمع من الأعرابي فعجل في صلاته حتى إذا انتهى منها أسرع إلى الأعرابي وأخذ بتلابيبه وهو يصفعه ويقول: يا عدو نفسه تقول هذا لأصحاب رسول الله ﷺ، ثم سحبه وذهب به إلى النبي ﷺ فأخبره بما قاله للصحابة فعظم ذلك على النبي فجمع المسلمين وخطبهم قائلاً: «أيها الناس إن الرب واحد والدين واحد والأب واحد، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن دخل في هذا الدين فهو من العرب»، ومما قالته الشعراء حول هذه الحكاية، قول مصطفى الغلابي:

إنما الناس يا قومي سواء
كل خلق من طينها والماء

لا تدع شوكة التكبّر تنمو
فجميع الأنام من حواء

خفف الوطء فالبرايا عيال اللّه
فارحم يرحمك من في السماء



ولأحدهم:

لا تشتمنَّ امرءاً في أن تكون له
أم من الروم أو سوداء عجماء

فإنما أمهات الناس أوعية
مستودعات وللأحساب آباء

ورب واضحة ليست بمنجبة
وربما أنجبت للفحل سوداء

وقال عدي بن الرقاع:

الناس أشباه وبين حلومهم
بون كذاك تفاضل الأشياء

كالغيم منه وابل متتابع
وجودٌ وآخر ما يجود بماء

○ ○ ○ ○ ○

عبد الله بن الزبير
وعبد الله بن فضالة بن شريك

ذكر صاحب «الأغاني» أن عبد الله بن فضالة أتى عبد الله بن الزبير فقال له: نفدت نفقتي ونقبت راحلتي. قال ابن الزبير: أحضرها، فأحضرها. فقال له: أقبل بها وأدبر بها. ففعل ابن فضالة. فقال ابن الزبير: ارقعها بسبت واخصفها بهلب وانجد بها ببرد؛ خفها وسر البردين تصح. فقال ابن فضالة: إني أتيتك مستحملاً ولم آتك مستوصفاً فلعن الله ناقة حملتني إليك. قال ابن الزبير: إنّ وراكبها «قال اليزيدي: (إن) هنا بمعنى نعم؛ كأنه إقرار بما قال»، فقال ابن فضالة شعراً في ابن الزبير وقد كانت كنية ابن الزبير (أبو بكر) لكن ابن فضالة كنّاه بأبي خبيب. وخبيب ابن لابن الزبير لكنه لا يكنيه به إلا من أراد ذمه. هكذا قال صاحب «الأغاني».

يقول ابن فضالة في ذلك:

أقول لغلمتي شدُّوا ركابي
أجاوز بطن مكة في سواد

فمالي حين أقطع ذا عرق
إلى ابن الكاهلية من معاد

سيبعد بيننا نص المطايا
وتعليق الأداوي والمزاد

وكل معبد قد أعلمته
منا سمهن طلاع النجاد

أي الحاجات عند أبي خبيب
نكر ولا أمية بالبلاد

من الأعياض أو من آل حرب
أغر كفرة الغرس الجواد

وفي هذا المعنى يقول الرصافي:

متاع الحياة أحقر من أن
يستفز القلب بالأحقاد

ومما نسب لأبي الشيص الخزاعي:

ليكن لديك لسائل فرج
إن لم يكن فليحسن الرد

○ ○ ○ ○ ○

من صور الحزن

جاء في كتاب «الكامل للمبرد» أن عمر بن ذر بن عبد الله الهمداني دخل على ابنه وهو يجود بنفسه. فقال: يا بني إنه ما علينا من موتك غضاضة ولا بنا إلى أحد سوى الله حاجة. فلما قضى وصلى عليه وداراه وقف على قبره، فقال: يا ذرَّ إنه قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك؛ لأنا لا ندري ما قلت ولا ما قيل لك، اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حقي، فهب له ما قصر فيه من حقك، واجعل ثوابي عليه له، وزدني من فضلك، إني إليك من الراغبين.

وسئل ما بلغ من برّه بك؟ فقال: ما مشى معي بنهار قط إلا قدمني، ولا بليل إلا تقدمني، ولا رقي سطحاً وأنا تحته.

وللشعراء في الحزن والأسى أقوال كثيرة، منها قول شوقي:

يجل الخطب في رجل جليل
وتكبر في الكبير النائبات

وليس الميت تبكيه بلاد
كمن تبكي عليه النائحات

وقول جميل صدقي الزهاوي:

يطفئ الموت ما تضيء الحياة
ووراء انطفائه ظلمات

إن للنازلين في القبر يوماً
تنتهي في سكونه الحركات



وقول أبي العلاء المعري:

ولا بد للإنسان من سكر ساعة
تهون عليه غيرها السكرات

وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

خليليَّ والله ما من ملمة
تدوم على حي وإن هي جلت

فإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها
ولا تكثر الشكوى إذا الفعل زلت

فكم من كريم يبتلى بنوائب
فصابرها حتى مضت واضمحلت

○ ○ ○ ○ ○

الخوف مما وراء الموت

جاء في كتاب «الكامل» للمبرد أن الفرزدق هجا خالد بن عبد الله القسري فكتب خالد إلى ملك بن المنذر بن الجارود يأمره فحبسه، فزاره ابنه لبطة وقال: يا أبت هذا عمر بن يزيد الإِسَيْدي ضُرب آنفاً ألف سوط فمات فشُدَّ على حمار. فقال الفرزدق لابنه لبطة: كأنك والله يا بُنيَّ بمثل هذا الحديث قد تحدث به عني.. وكان الحسن البصري يزور محبوساً له إذ ذاك، فقال يا أبا فراس: ما عندك إن كان ذلك؟ فقال الفرزدق: والله يا أبا سعيد لله أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري ومن مالي ومن أهلي وعشيرتي، أفتراه يخذلني!؟ فقال الحسن: لا.

ولكرز بن عميرة الطائي في هذا المعنى:

اعمل لنفسك ما استطعت وعدها
ما عشت ميّتةً مع الأموات

والموت فاعلم غائب لا بد أن
يأتي وإتيته إلى ميقات

في ساعة ما بعدها متربص
يرجى ولا مُتقّدمُ لوفاة

ولأبي العتاهية:

وعظتك أحداث صُمُت
ولفتك أزمنة خفت



وتكلمت عن أوجهٍ
تبلى وعن صور شتتْ

وأرتك قبرك في القبو
ر وأنت حي لم تمت

ولآخر، وأحسبه جرير:

تروعنا الجنائز مقبلات
ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة هجمة لمغار سبع
فلما غاب عادت رائعات

○○○○○

الانقطاع إلى الله

سأل رجل ذا النون المصري فقال: ما الذي أنصب العباد وأضناهم؟ فقال: ذكر المقام وقلة الزاد وخوف الحساب.

قال موسى بن طرفة: كانت الجارية تفرش لعلي بن البكار فيلمس بيده الفراش ويقول: والله إنك لطيب والله إنك لبارد، والله لا علوتك ليلتي، فكان يصلي الغداة بوضوء العتمة.

روي عن سعيد بن يزيد الساجي أنه قال: قال موسى عليه السلام: أي رب أين أجدك؟ قال: فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إذا انقطعت إلي فقد وصلت.

قال محمد بن المبارك الصوري: أعمال الصادقين لله بالقلوب، وأعمال المرائين بالجوارح للناس، فمن صدق فليقف موقف العمل لله لعلم الله به لا لعلم الناس لمكان عمله.

قال أبو سليمان الداراني: ليس الزاهد من ألقى غم الدنيا واستراح فيها، إنما الزاهد من ألقى غمها وتعب فيها لآخرته.

أنشد ذو النون المصري فقال:

توجع بأمراض وخوف مطالب
وإشفاق محزون وحزن كئيب

ولوعة مشتاق وزفرة واله
وسقطة مسقام بغير طبيب



وفطنة جوال وبطأة غائض
ليأخذ من طيب الصفا بنصيب

ألمت بلقب حيرته طوارق
من الشوق حتى ذل ذل غريب

يكاتم لي وجداً ويخفي حمية
ثوت فاستكنت في قرار لبيب

خلا فهمه عن فهمه لحضوره
فمن فهمه فهم عليه رقيب

يقول إذا ما شفه الشوق وأجدى
بك العيش يا أنس المحب يطيب

فهذا لعمري عبد صدق مهذب
صفي فاصطفى فالرب منه قريب

○○○○○

الزهد في الدنيا

روي أنه التقى الحسن البصري والفرزدق في جنازة فقال الفرزدق للحسن: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشرُّ الناس! فقال الحسن: كلا. لست بخيرهم، ولست بشرهم، ولكن ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، منذ ستون سنة وخمس نجائب لا يدركن - يعني الصلوات الخمس -. ويزعم بعض التميميَّة أن الفرزدق رئي في المنام فقيل له: ما صنع بك ربُّك؟ فقال: غفر لي، فقيل له: بأي شيء؟ فقال: بالكلمة التي نازعني فيها الحسن.

ومما قيل في الزهد، على ما شرطتُ قول أحدهم:

يا نفس زوري القبور واعتبريها
حيث فيها لمن يزور عظات

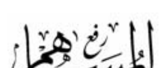
فانظري كيف حال من حل فيها
بعد عز وهم بها أموات

حرصوا وأملوا كحرصك يا نفس
وأوفاهم الحمام فماتوا

فالسُّراة العِظامُ منهم عظام
في بطون الثرى حطام رفات

فكأن قد حللت في مصرع القوم
وحلت بجسمك المثلات





وقول الآخر:

تناجيك أحداث وهن صموت
وسكانها تحت الثرى خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغة
لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

وقول أبي الحسن علي الحصري:

لا أدري الموت إلا باسطاً يدهُ
من قبلِ أن يُمكنَ المأسور إفلات

○ ○ ○ ○ ○

عمرو بن قميئة يضرب أروع مثل في العفة

روى ابن القيم الجوزية في كتابه «أخبار النساء» عن أحمد بن يحيى أنه قال: كان مرثد عم عمرو بن قميئة الشاعر عند امرأة جميلة، وكان قد كبر، وكان يجمع بني أخيه وبني عمه في منزله للغداء كل يوم، وكان عمرو بن قميئة شاباً جميلاً، وكان أصبع رجله الوسطى والتي تليها مفترقتين، فخرج مرثد يرمي بالقداح، فأرسلت امرأته إلى عمرو بن قميئة تقول: «إن ابن عمك يدعوك». فجاءت به من دير البيوت فلما دخل عليها لم يجد عمه فأنكر أمرها، فراودته عن نفسها، فقال لها: لقد جئت بأمر عظيم، وما كان مثلي يدعى لمثل هذا! ثم إنه قام فخرج.. وأمرت بجفنة فكبت على أثر رجله، فلما رجع مرثد وجدها متغضبة، فقال لها: ما لك؟ قالت: إن رجلاً من قومك قريب القرابة جاء يستامني نفسي ويريد فراشك منذ خرجت، قال: ومن هو؟ قالت: أما أنا فلا أسميه، ولكن قم فاقتف أثره تحت جفنه، فلما رأى الأثر عرفه فأعرض عنه وجفاه، ولم يزده على ذلك، وكان أحب الخلق إليه، وعرف ابن قميئة ذلك وكره أن يخبره، فقال قصيدة، منها قوله:

لعمرك ما نفس بجدٍّ رشيدةٌ

تؤامرني سراً لأصرم مرثداً

وإن ظهرت منه قوارص جمةٌ

وأفرغ في لومي مراراً وأصعدا

على غير ذنب أن أكون جنيته

سوى قول باغ كادني فتجهدا





لعمري لنعم المرء تدعو بحبله
وإذا ما المنادى في المقامة ندَّدا

عظيم رماد القدر لا متعبس
ولا مؤيس منها إذا هو أوقدا

وإن صرحت كحل وهبت عريه
من الريح لم تترك لذي المال مرفدا

صبرتُ على وطء الموالي وحطمهم
إذا ضن ذو القربى عليهم وأخمدا

ولم يحم خرج الحي إلا محافظ
كريم المحيا ماجدٌ غير أحردا

ooooo

الرسول يقر عهد المرأة
بالوفاء لزوجها بعد موته

يروى عن السماك بن حرب أن زيد بن حارثة قال: يا رسول الله انطلق بنا إلى فلانة نخطبها عليك أو عليَّ إن لم تعجبك، فأتيناها فذكر لها زيد رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنّي عاهدت زوجي ألا أتزوج بعده أبداً، وأعطاني مثل ذلك، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن كان ذلك في الإسلام ففي له، وإن كان ذلك في الجاهلية فليس بشيء».

وما أكثر النساء اللائي يعاهدن أزواجهن على ألا يتزوجن من بعدهم أبداً وفاء لهم وزهداً فيمن سواهم من الرجال.

قال الأصمعي: خرجت إلى مقابر البصرة فإذا أنا بامرأة على قبر من أجمل النساء، وهي تندب صاحبه وتقول:

هل أخبر القبر سائليه
أم قرَّ عيناً بزائريه

أم هل تراه أحاط علماً
بالجسد المستكن فيه

يا جبلاً كان ذا امتناع
وطوراً عد لآمليه

يا نخلة طلعها نضيد
يقرب من كف مجتنيه

يا موت ماذا أردت مني
حققت ما كنت أتقيه

دهر رماني بفقد إلفي
أذم دهري واشتكيته

أمنك اللّه كل خوفٍ
وكل ما كنت تتقيه

أسكنك اللّه في جنان
تكون أمناً لساكنيه

قال الأصمعي: فقلت لها: يا أمة اللّه ما هذا منك؟ قالت: لو علمت مكانك ما أنشدت حرفاً، هذا زوجي وسروري وأنسي، والله ما زلت هكذا أبداً أو ألحق به.

○○○○○

تواضع ثابت بن أقرم

لقد صح عن ثابت بن أقرم البلوي أنه شهد غزوة مؤتة، وأنه قد أسرع إلى الراية وأخذها لما سقطت من ثالث الثلاثة الذين سقطوا في المعركة وهم على التوالي: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، ورفعها عالية وهو يقول: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم للقيادة، فقالوا له: أنت، فأجاب متواضعاً منكراً نفسه: ما أنا بفاعل، وتطلَّع فرأى خالد بن الوليد قريباً فدفعها إليه في عزم وتصميم قائلاً له: أنت أعلم بالقتال مني.

وفي معركة اليمامة كان هو ثاني اثنين تقدما الجيش، هو وعكاشة بن محصن، فقتلهما طليحة الأسد وأخوه، ويروى أن عمر بن الخطاب قال لطليحة بعدما أسلم: كيف أحبك وقد قتلت الصالحين عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم؟ فقال طليحة: أكرمهما الله بيدي، ولم يهنِّي بيديهما.. وللشعر في هذا المعنى نصيب.. قال الخليل بن أحمد:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب
وإن كثرت منه عليَّ الجرائم

وما الناس إلا واحد من ثلاثة
شريف ومشروف ومثلٌ مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف قدره
وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا
تفضَّلت أن الحر بالفضل حاكم

وأما الذي دوني فإن قال صنت عن
إجابته عرضي وإن لام لايم

وقال آخر:

يموت قوم ويأسى لهم أحد
وواحد موته هم لأقوام

وقال الشافعي:

وموت الفارس الضرغام هدم
فكم شهدت له بالنصر عزمه

وقال آخر:

وليس يبالي أن يكون به الأذى
إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

○○○○○

المتفقهون لغير الدين

روي عن أبي الدرداء أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عزَّ وجلَّ في بعض كتبه، أو أوحى إلى بعض أنبيائه: قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش قلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، إيّاي يخدعون أو بي يستهزئون فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تدع الحليم حيران».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه علمه».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «إن الله يعافي الأميين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء».

عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار، فقالوا: بم دخلتم النار؟ وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم، قالوا: إنا كنا نأمركم ولا نفعل».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في جهنم رحى تطحن علماء السوء طحناً».

سمع بشر بن الحارث المعروف بالحافي، يقول: العلم حسن لمن عمل به، ومن لم يعمل ـ يعني به ـ ما أضرّه.

أنشد محمد بن أبي الأصبهاني لبعضهم:

والعلم زين وتقوى اللّه زينته
والمتقون لهم في علمهم شغلُ

وحجة اللّه يا ذا العلم بالغة
لا المكرم ينفع فيها لا ولا الحيل

تعلَّم العلم واعمل ما استطعت به
لا يلهينك عنه اللهو والجذل

وعلِّم الناس واقصد نفعهم أبداً
إياك إياك أن يعتادك الملل

وعظ أخاك برفق عند زلته
فالرفق يعطف من يعتاده الزلل

وإن تكن بين قوم لا خلاق لهم
فأمر عليهم بمعروف إذا جهلوا

فإن عصوك فراجعهم بلا ضجر
واصبر وصابر ولا يحزنك ما فعلوا

فكل شاة برجليها معلقة
عليك نفسك وإن جاروا وإن عدلوا

○○○○○

تسلية ثكلى

كثيراً ما تخلف الصدف وبعض المواقف التي يمر بها الإنسان أثناء حياته أحاديثاً شيقة وحكايات أدبية طريفة يستلزم الأمر تدوينها، فمن ذلك مثلاً ما رواه الأصمعي عن نفسه بقوله: نزلت على امرأة من بني عامر بن صعصعة، وقد مات ابن لها وهي من القلق على مثل الرضفة، فقامت تعالج لي طعاماً، فقلت لها: يا هذه إنك لفي شغل عن هذا، فقالت: والله لا تجوز بيتي إلا مَقْرِيّاً.. ولكن أنشدني أبياتاً أسلو بهن، فإني أراك لوذعياً، فأنشدتها أبيات نُويْرَة بن حصين المازني يرثي بها ابنه.

منها قوله:

إني أرى للشامتين تجلدي
وإنِّ كالطاوي الجناح على كسر

يُرى واقعاً لم يُدْرَ ما تحت ريشه
وإن ناء لم يسطع نهوضاً إلى وكر

فلولا سُرور الشامتين بكبوتي
لما رقأت عيناي من واكف يجري

على من كفاني والعشيرة كلها
نوائب ريْب الدهر في عثرة الدهر

ومن كانت الجارات تأمن ليله
إذا خفن مَنْ باتت غوائله تسري

ولا يُنظر الأيسار إن نال يُسْره
ولا ينثني عن فعل خير لذي العسر

ولست وإن خيرت أن قد سليته
بناسٍ أبا سَوْداء إلّا على ذِكر

شمائل منه طيبات يعُدْنني
وأخلاق محمود لذي الزاد والفقر

قال: فكأني والله زَبَرتْ الأبيات في صدرها فما زالت تنشدها وتصلح طعامي حتى قرتني ورحت من عندها.

وقد اقتطفت من القصيدة المشار إليها الأبيات السابقة، وذلك وفقاً لشرطي في تأليف هذا الكتاب، فلا تتجاوز ولا تقل أبيات كل موضوع عن ثمانية أبيات، أما قوله: على مثل الرضفة؛ فإن الرضفة: الحجرة المحماة.

○○○○○

مواساة الفقير

جاء في كتاب «الأمالي» لأبي عليٍّ القالي أن أسيد بن عنقاء الفزاري كان من أكثر أهل زمانه مالاً وأشدهم عارضة ولساناً فطال عمره ونكبه دهره وأخلت حالته فخرج عشية يتبقل لأهله فمرَّ به عُمَيْلة الفزاري فسلم عليه وقال: يا عم، ما أصارك إلى ما أرى من حالك؟ فقال: بخل مثلك بماله، وصوني وجهي عن مسألة الناس، فقال عميلة: والله لأن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك، فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة، فقالت له: لقد غرّك كلامُ غلام جُنحَ ليل. فكأنما ألقمت فاه حجراً، فبات متململاً بين رجاء ويأس فلما كان السحر سمع رغاء الإبل وثغاء الشاه وصهيل الخيل ولجب الأموال، فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا عُمَيْلة ساق إليك ماله، قال: فاستخرج ابن عنقاء، ثم قسَمَ ماله شطرين وساهمه عليه، فأنشأ ابن عنقاء يقول:

رآني على ما بي عُمَيْلة فاشتكى
إلى ماله حالي أسَرَّ كما جهر

دعاني فآساني ولو ضن لم ألم
على حين لا بَدْوٌ يُرجَى وحضر

فقلت له خيراً وأثنيت فعله
وأوفاك ما أبليتَ مَنْ ذمَّ أو شكر

ولما رأى المجدَ استعيرت ثيابه
تردّى رداءً سابغ الذيل وأتزر

غلام رماه اللّه بالخير مقبلاً
له سيمياء لا تَشُقُّ على البصر

كأن الثريا عُلقت فوق نحره
وفي أفقه الشعرى وفي خده القمر

وفي مثل هذا يقول أبو الأسود الكناني:

كساك ولم تستكسه حمدته
أخ لك يعطيك الجزيل وناصر

وإن أحق الناس إن كنت شاكراً
بشكرك من أعطاك والوجه وافر

○○○○○

سوء عقبى السخرية

كثير من الناس تأتي عليه المصائب العظام وتنزل بساحته المآسي الجسام فيحتملها بكل تجلد وتصبر فلا يكاد يبدو عليه شيء من التأثر وذلك لرباطة جأشه وقوة شكيمة صبره وجلده مما يجعله في كثير من المواقف عرضة لسخرية الرعاع من الناس كأن يقال له: رزئت بكذا وأصبت بكذا، وما انتابك إحساس ولا تأثر بما أصبت به، فكأنما ركبت فيك طباع حيوانية عديمة الإحساس.

روى العباس بن هشام عن أبيه قال: كان حضرميّ بن عامر عاشر عشرة من إخوته فماتوا فورثهم، فقال ابن عم له يقال له جَزْءٌ: من مثلك مات إخوتك فورثتهم فأصبحت ناعماً جذلاً - ربما قال هذا مازحاً - فقال حضرمي:

يـزعـم جَـزْءٌ ولـم يـقـل سَـدداً
أنـي تـزوجـت نـاعـمـاً جـذلاً

إن كـنـت أزنـنـتـنـي بـهـا كـذبـا
جَـزْءٌ فـلاقـيـت مـثـلـهـا عـجـلا

أفـرحُ إن أُرْزَأ الـكـرامَ وأن
أُرَثَ ذوداً شـصـائـصـاً نـبـلا

كـم كـان فـي إخـوتـي إذا احـتـضـن
الأقـوام تـحـت الـعـجـالـة الأسـلا

مـن واجـدٍ مـاجـدٍ أخـي ثـقـة
يـعـطي جـزيـلاً ويـضـرب الـبـطـلا

إن جـئـت خـائـفـاً أمِـنْـتَ وإن
قـال سـأحـبـوك نـائـلاً فـعـلا

فجلس جَزْءٌ على شفير بئر وكان له تسعة إخوة فانخسفت بإخوته ونجا هو، فبلغ ذلك حضرمياً، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، كلمة وافقت قدراً وأبقت حقداً.

بقوله هُدْبَة بن خشرم العذريّ:

ورب كـلام قـد جـرى مـن مـازح
فـسـاق إلـيـه سـهـم حـتـف فـعـجـلا

فـدع عـنـك قـرب الـمـزح لا تـقـربـنـه
كـفـى بـامـرئ وعـظـاً إذا مـات كـهـلا

○ ○ ○ ○ ○

المبالغة في الرثاء

يطلق بعض الشعراء ألسنتهم في الرثاء أحياناً لأمرين، إما أن يكون بوحي من شعور صادق وإحساس مؤثر بفقدان المصاب، فيصور المواقف التي كان يحمد عليها المتوفى إبان حياته تصويراً حياً يشيد بفعله كل ما حلت له ذكرى، وإما أن يبالغ مبالغة تكون على نقيض ما كان عليه المتوفى حتى يحمل الناس على ذكر مثالبه كأسلوب لنقض ذلك المديح الذي لم يكن المتوفى أهلاً له، ويجعله أحدوثة بلا ترحم عليه.

روي عن الأصمعي أنه قال: كنت بالبادية فرأيت امرأة عند قبر وهي تبكي وتقول:

فمن للسؤال ومن للنوال
ومن للمقال ومن للخطب

ومن للحماة ومن للكماة
إذا ما الكماة جثوا للركب

إذا قيل مات أبو مالك
فتى المكرمات قريع العرب

فقد مات عزّ بني آدم
وقد ظهر النكد بعد الطرب

قال: فلمت إليها فقلت لها: من هذا الذي مات هؤلاء الخلق كلهم بموته؟ فقالت: أو ما تعرفه؟ قلت: اللهم لا، فأقبلت ودمعتها

تنحدر وإذا هي مقاء برشاء ترماء، فقلت: فديتك هذا أبو مالك الحجام ختن أبي منصور الحائك! فقلت: عليك لعنة الله، والله ما ظننت إلا أنه سيد من سادات العرب، أما شهاب الدين الموسوي المعروف بابن معتوق، فقد رثى السيد حسين بن المولى السيّد علي خان سنة ١٠٨٠ بقصيدة، منها قوله:

نعته السما والأرض حتى بكتْ له
جفون الغوادي بالدموع السواكب

ورقّ القنا حُزْناً عليه صدوره
وحنت إليه صاهلات السلاهب

وشقت عليه الأبعدون جيوبها
من الوجد فضلاً عن قلوب الأقارب

قضى فقضى المعروف والبأس والرحبا
وضاقت علينا واسعات المذاهب

○○○○○

تأثير الاحتقار

يصدر بعض الأحيان تصرف حركي من بعض الأشخاص إزاء بعضهم؛ كفعل التقديم والتأخير في المقاعد وصدور المجالس ممن يكون في استقبال المدعوين للولائم مثلاً.. وبطبيعة الحال فإن التقديم والتأخير المتخذ عنوة وتعمداً يكون له أثر في نفس المدعو.. فالمقدم يرى أنها حفاوة به وإجلالاً لقدره ومقامه.. والمؤخر يرى أن في ذلك إهانة له وغمطاً لمكانته وتنقيصاً لقيمته، وتحقيراً لقدره فيبقى ذلك التصرف نكتة سوداء في نفسه ترتسم داخلها صورة ذلك الشخص الذي أساء الأدب معه.

حدَّث أحمد بن عبيد عن بعض شيوخه قال: كانت وليمة في قريش تولّى أمرها مقّاس الفقعسي فأجلس عُمارة الكلبي فوق هشام بن عبد الملك فأحفظه ذلك، وآلى على نفسه أنه متى أفضت الخلافة إليه عاقبه، فلما جلس في الخلافة أمر أن يؤتى به، وتقلع أضراسه وأظفار يديه فَفُعِلَ ذلك به، فأنشأ يقول:

عذبوني بعذاب
قلعوا جوهر رأسي
ثم زادوني عذاباً
نزعوا عني طساسي[1]

---

(١) نسب أبو علي القالي في كتابه «الآمالي» إلى أبي الميّا قوله: الطساس: الأظافر.



بـالـمـدى حـزز لـحـمـي
وبـأطـراف الـمـواسـي

وقال القروي:

جاد العزيز على الذليل بصفعة
تركت بصحن الخد طابع خمسة

ومضى العزيز يحك راحة كفه
ومضى الذليل يحك جلدة رأسه

فظننته احتمل الهوان لحكمه
حتى يعود بسيفه وبترسه

ولبثت أنتظر الجبان لكي أرى
من بعد حكمته طلائع بأسه

حتى عثرت به الغداة كأنه
نسي الذي قد ذاقه في أمسه

○○○○○

من صور الاحتقار

يقلّ الشخص في عين من يراه أحياناً فيسبق منه لسان التسرع إلى التعبير عن الاحتقار، وهذا يعتبر دليلاً واضحاً على قلة أدب كل من يحتقر من لا يعرفه ويقيس الأفعال بالأجسام والمظاهر، بل يعتبر ذلك سوء فهم وأدب وظاهرة سيئة قد خضعت لحكم العين دون الرجوع إلى العقل.

... قال علي بن نصر الجهضمي: دخل كثير على عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك بن مروان: أأنت كثير عزة؟ قال: نعم، قال: أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.. فقال: يا أمير المؤمنين كل عند محلّه رحب الغناء، شامخ البناء، عالي السَّناء، ثم أنشأ يقول:

ترى الرجل النحيف فتزدريه
وفي أثوابه أسد هصور

ويعجبك الطرير إذا تراه
فيخلف ظنك الرجل الطرير

بغاث الطير أطولها رقاباً
ولم تطل البزاة ولا القصور

خشاش الطير أكثرها فراخاً
وأم الصقر مقلات نزور

ضعاف الأسد أكثرها زئيراً
وأصرمها اللواتي لا تزير

وقد عظم البعير بغير لب
فلم يستغن بالعظم البعير

ينوَّخ ثم يضرب بالهراوى
فلا عُرْفُ لديه ولا نكير

يقوّده الصبي بكل أرض
وينحره على الترب الصغير

فقال عبد الملك: للّه دره ما أفصح لسانه، وأضبط جنانه، وأطول عنانه، والله إني لأظنه كما وصف نفسه. هكذا جاءت هذه الحكاية ونسبة الأبيات، غير أنها في ديوان الحماسة منسوبة للعباس بن مرداس.

○○○○○

ذكر الله مَرْهَمُ كلِّ جرح

وقفت على ترجمة لسيدي إبراهيم التازي، جاءت في كتاب «التاج المذهب في معرفة أعين علماء المذهب»، لمؤلفه برهان الدين إبراهيم الذي قال عن التازي: إنه اشتهر في الآفاق بغزارة علمه، وحسن أدبه، وسعة اطلاعه.. حتى إذا بالغ أحدهم في وصف رجل قال: كأنه سيدي إبراهيم التازي، وذكر في ترجمته أنه عالم جليل، أخذ العلم عن عدة علماء أحدهم قاضي القضاة المالكية بمكة المكرمة، سيدي الشريف تقي الدين بن محمد بن أحمد الحسني الفاسي، وقال عنه برهان الدين أيضاً: إنّ له أقوالاً في الحكمة، منها قوله:

العالم لا تعاديه، والجاهل لا تصافيه، والأحمق لا تؤاخيه. ثم ذكر وفاته فقال: وقد توفي التازي في التاسع من شعبان سنة ست وستين وثمانمائة للهجرة.

وقال عنه: إنه كان عالماً زاهداً متصرفاً له كرامات، ومكاشفات كثيرة وقصائد في مدح النبي ﷺ، وقد نقل له قصائد، منها قصيدة وعظية هي غاية في الجودة والحسن في معناها، إذ فيها حث على المبادرة بالتوبة، والتنبيه عن الغفلة، وقد حذَّر فيها من بلغ سن الأربعين وهو ما زال في غفلته، ومقيم على تهاونه وتساهله في أداء العبادة.

من تلك القصيدة قوله:

أمـــا آن أرعـــواؤك عـــن شـــنـــار

كـفـى بـالـشـيـب زاجـراً عـن عـوار





أبعد الأربعين تروم هزلاً
وهل بعد العشية من عرار

ومنها قوله:

فما الدنيا وزخرفها بشيء
وما أيامها إلّا عوار

وليس بعاقل من يصطفيها
أتشرى الفوز ويحك بالتبار

فتب واخلع عذارك في هوى من
له دار النعيم ودار نار

جمال اللّه أكمل كل حسن
فللّه الكمال ولا ممار

وحب اللّه أشرف كل أنس
فلا تنسى التخلق بالوقار

وذكر اللّه مرهم كل جرح
وأنفع من زلال للأوار

○○○○○

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾

هناك أسئلة تدول بين العلماء يكون لإجاباتها عمق لا يدركه عامة الناس كما أن هناك أسئلة توجه إلى العلماء من أناس متزندقين يحاولون بتوجيهها التعجيز، أو الحصول على إجابات يفتحون بها أبواباً للأخذ والرد والمناقشة العقيمة التي لا تؤدي إلى نتيجة حاسمة، فيبقون متشبثين بتوجيه أسئلتها لغرض التشكيك أو ليرسموا بها طريقاً يسلكه الجهلة ويفضون منه إلى متاهات لا يدركون ضررها، لكن العلماء المتيقظين يعرفون كيف يردون على أولئك بأسئلة تبهتهم وتلزمهم الصمت أو يعطون أجوبة مسكتة للزنادقة، وشافية للجهلة.

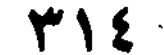
أما العلماء الذين يطلبون العلم ممن هم أعلم منهم، فإنَّ أسئلتهم تكون عادة فوق فهم المتعلم العادي لكن إجابتها تكون رصيداً له وزيادة في علمه ومعرفته، مثال ذلك سؤال الزمخشري للإمام الغزالي عن القول في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، وقد أجاب الإمام الغزالي بأبيات من الشعر، منها قوله:

قل لمن يفهم عنّي ما أقول
اترك البحث فذا شرح يطول

ومنها قوله:

أين منك الروح في جوهرها
هل تراها أو ترى كيف تجول

أنت أكل الخبز لا تعرفه
كيف يجري فيك أم كيف يؤول





فإذا كانت طواياك التي
بين جنبيك بها أنت جهول

كيف تدري من على العرش استوى
لا تقل كيف استوى كيف الوصول

* * *

فهو لا كيف ولا أين له
هو رب الكيف والكيف يحول

وهو فوق الفوق لا فوق له
وهو في كل النواحي لا يزول

جلّ ذاتاً وصفات وعلا
وتعالى ربنا عما نقول

○ ○ ○ ○ ○

إضمار الحقد

من الناس من يحسد الناس على ما في أيديهم.. ومنهم من يظهر العداوة لمن هو فوقه في المرتبة أو المركز الاجتماعي دونما سبب يدعو لذلك، اللّهم إلا العجز الذي أوهنه عن المجاراة في الاتصاف بالصفات الحميدة.. ومنهم من إذا حصل بينه وبين أحد من الناس مشاجرة أو شحناء أو ما إلى ذلك من الأمور التي يكون منشؤها غالباً سوء التفاهم الذي ينتهي بالتسامح والوفاق عادة، لكن الحقود تضل في قلبه جزئيات وآثار لا يمحوها التسامح فتأتلف ويكون لها كيان يتمخض عن حقد مضمر يظل ملازماً طول حياته، وهذا النوع من الناس هو الذي يخشى منه ويجدر الحذر منه؛ لأنه يظهر خلاف ما يبطن فتراه يبتسم ابتسامة صفراء وقلبه مملوء بالحقد وصدره يكاد يتميز من الغيظ والكراهية.

روى الأصمعي ليزيد بن الحكم الثقفي قوله:

تكاشرني كرهاً كأنك ناصح
وعَيْنُك تُبدي أن صدرك لي دَوِي

لسانك ماذي وغيبك علقم
وشرك مبسوط وخيرك منطوى

فليت كفافاً كان خيرك كله
وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوى

عدوك يخشى صولتي إن لقيته
وأنت عَدوِّي ليس ذاك بمستوى

تـصـافـح مـن لاقـيـت لـي ذا عـداوة
صـفـاحـاً وغـيـيٍّ بـيـن عـيـنـيـك مُنْزَوى

أراك إذا لــم أهــوَ أمــراً هــويــتــه
ولـستَ لـما أهوى من الأمر بالـهوى

أراك اجـتـويـتَ الـخـير منّي واجـتـوى
أذاك فـكـل يـجـتـوي قـرب مُـجـتـوى

وكم موطن لولاي طحت كما هَوَى
بـإجـرامـه مـن قُـلَّـة الـنـيـق مُنْهوى

ooooo

عمر بن هبيرة يكرم أعرابياً قصده

عن علي بن عبد الله قال: حدثني العُتْبيُّ قال: أشرف عمر بن هبيرة الفزاري من قصر فإذا هو بأعرابي يُرقِّصُ جَمَلَه الآلُ، فقال لحاجبه: إن أرادني هذا فأوصله إليَّ، فلما دنا الأعرابي سأله فقال: قصدت الأمير، فأدخله إليه، فلما مثل بين يديه قال له عمر: ما خطبك؟ فقال الأعرابي:

أصلحك اللّه، قل ما بيدي
فما أطيق العيال إذ كثروا

ألحَّ دهر أنحى بكلكله
فأرسلوني إليك وانتظروا

رجوك للدهر أن تكون لهم
غيث سحاب إن خانهم مطر

قال: فأخذت عمر الأريحية فجعل يهتز في مجلسه، ثم قال: أرسلوك إليَّ وانتظروا؟ إذاً والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانماً، فأمر له بألف دينار وردَّه على بعيره.

وعلق أبو العباس محمد بن يزيد بن المبرد على ذلك في كتابه «الكامل» بقوله: وحدثني أبو إسحاق القاضي إسماعيل بن إسحاق، أن الخبر لمعن بن زائدة، وصح ذلك عندي. ولمعنى الحكاية شواهد من الشعر، منها قول الخليل مطران:

هنيئاً لمن يدرأ النازلا
ت ببعض الصلات إذا ما قدر



وقول عمر بن الوردي:

وتوخَّ فعل المكرمات تبرعاً
فالمكرمات حميدة الآثار

وقال الكريزي:

يد المعروف غنم حيث كانت
تحمَّلها شكور أو كفور

فعند الشاكرين لها جزاء
وعند اللّه ما كفر الكفور

وقال آخر:

إن دون السؤال والاعتذار
خطة صعبة على الأحرار

○ ○ ○ ○ ○

عتبة بن أبي سفيان والأزدي

جاء في كتاب «الكامل» للمبرد أن عبد الملك بن عمير قال: استعمل عتبة بن أبي سفيان رجلاً من آله على الطائف، فظلم رجلاً من أزد شنوءة، فأتى الأزدي عتبة فمثل بين يديه، فقال:

أمرت من كان مظلوماً ليأتيكم
فقد أتاكم غريب الدار مظلوم

ثم ذكر ظلامته، فقال له عتبة: إني أراك أعرابياً جافياً، والله ما أحسبك تدري كم تصلي في كل يوم وليلةٍ؟ فقال: أرأيت إن أنبأتك ذلك، أتجعل لي عليك مسألة؟ قال: نعم، فقال الأعرابي:

إن الصلاة أربع وأربع
ثم ثلاث بعدهن أربع

ثم صلاة الفجر لا تُضيَّع

فقال: فاسأل، فقال الأعرابي: كم فقار ظهرك؟ فقال: لا أدري، فقال الأعرابي: أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك! قال: رَدُّوا عليه غنيمته.

وللشعراء فيما يقرب من هذا المعنى أقوال كثيرة، منها قول المتنبي:

لقد أباحك غشاً في معاملة
من كنت منه بغير النصح تنتفع

إن السلاك جميع الناس يحمله
وليس كل ذوات المخلب السبع

وقول ابن القيم:

فقل للعيون الرمد للشمس أعين
سواك تراها في مغيب ومطلع

وسامح نفوساً بالقشور قد ارتضت
وليس لها للب من متطلع

وقال الآخر:

بصير بأعقاب الأمور كأنما
يرى بصواب الرأي ما هو واقع

وقول قتادة بن جرير، ولم يرجح البصيري في حماسته أنه لعبد الله بن أبي:

ولم أر مثل الحق أنكره امرؤ
ولا الضيم أعطاه امرؤ وهو طائع

○ ○ ○ ○ ○

تواضع عمرو بن العاص

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: حدثني العباس بن الفرج في إسناد ذكره قال: نُظِرَ إلى عمرو بن العاص على بغلة قد شمط وجهها هرماً، فقيل له: أتركب هذه وأنت على أكرم ناخرة بمصر؟ فقال: لا ملل عندي لدابتي ما حملت رحلي، ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي، ولا لصديقي ما حفظ سري، إن الملل من كواذب الأخلاق.

وقوله: على أكرم ناخرة؛ يريد الخيل يقال للواحد: ناخر.

وقالت الشعراء في ذلك أو فيما هو قريب منه.

قال البحتري:

وإذا الشريف لم يتواضع
للاخلاء فهو عين الوضيع

وله أيضاً:

دَنَوْتَ تواضعاً وبعدت قدراً
فشأناك.. انحدار وارتفاع

كذاك الشمس تبعد أنْ تسامي
ويدنو الضوء منها والشعاع

وقال خليل مطران:

إذا كنت تأتي المرء تعظم حقه
ويجهل منك الحق فالصرم أوسع



وقال أبو العلاء المعري:

وافعل بغيرك ما تهواه يفعله
واسمع الناس ما تختار مسمعه

وقال أحدهم:

وإذا جهلت من امرئ أخلاقه
وقديمه فانظر إلى ما يصنع

وقال أبو تمام:

وتواضع تكن كالنجم لاح لناظر
على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه
إلى طبقات الجو وهو وضيع

○ ○ ○ ○ ○

نصيحة لعبد الله بن العباس من والده

رُوي عن الشعبي أنه قال: قال عبد الله بن العباس قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير المؤمنين قد اختصك دون من ترى من المهاجرين والأنصار فاحفظ عني ثلاثاً: لا يجربنّ عليك كذباً، ولا تغتب عنده مسلماً، ولا تفشينَّ له سراً، قال: فقلت له: يا أبه كل واحدة منها خير من ألف، فقال: كل واحدة منها خير من عشرة آلاف.

وشاهد ذلك من الشعر ما قاله أبو العتاهية:

إذا لم يضق قول عليك فقل به
وإن ضاق عنك القول فالصمت أنفع

فلا تحتقر شيئاً تصاغرت قدره
فإن حقيراً قد يضر وينفع

وقال مسكين الدارامي، واسمه ربيعة بن عامر:

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم
على سر بعض غير أني جماعها

لكل امرئ شِعْبٌ من القلب فارغ
وموضع نجوى لا يرام اطلاعها

يظلون شتى في البلاد وسرهم
إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

وقال الطرماح بن حكيم:



يؤلف بين القوم بغضي وما لهم
سوى فرْط إجماع عليَّ جميع

وما بي من شكوى لنفسي منهم
ولا جزع إني إذاً لجزوع

وقال أحدهم:

وكن موضعاً للحلم واصفح عن الأذى
فإنك راء ما علمت وسامع

○○○○○

رباطة الجأش

تمر ببعض الناس ظروف صعبة ومواقف حرجة جداً، لكنه بمرورها يتميز بعضهم عن الآخر، وتقوم الفوارق بينهم وفقاً للأساليب التي يعالجون بها تلك المواقف الحرجة، فمنهم من يفقد رشده عندما يفاجئه أمر لا تجوز فيه المجازاة والمعاقبة بالمثل، فيتصرف حسبما تمليه عليه انفعالاته التي تجيِّشُها اللحظات التي يمر بها ذلك الموقف فيأبى ركوب الحكمة ويجنح به الانفعال إلى سرعة المبادرة والتشفي.

ومنهم من يملك زمام رشده برباطة جأشه والتصرف وفقاً لمنطق العقل وتوطين النفس وحملها على التفكير في عواقب الأمور التي يحمد عليها.

.. حكي أن أعرابياً قتل أخوه ابْنَه، فقدم أخوه إليه ليقتاد منه فألقى السيف من يده وهو يقول:

أقول للنفس تأساءً وتعزية
إحدى يديّ أصابتني ولم تُرد

كلاهما خَلَفٌ من فقد صاحبه
هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ويقول ابن رشيق:

خذ العفو وائب الظلم واجتنب الأذى
واغض تَسُدْ وارفق تنل واسْخ تحمد

ويقول أبو العلاء المعري:



إذا المرءُ لم يغلبْ من الغيظ سورة
فليس وإن فضَّ الصفا بشديد

ويقول دعبل الخزاعي:

إذا لم تتسع أخلاق قومٍ
تضيق بهم فسيحات البلاد

ويقول المتنبي:

وإذا الحلم لم يكن في طباع
لم يحلم تقادم الميلاد

ويقول أبو تمام:

ورحبَ صدرٍ لو أن الأرض واسعة
كوسعة لم يضق عن أهله بلد

ويقول محمود الأيوبي:

ما فاز في هذه الحياة سوى امرئ
قطع الظلام بعقله الوقاد

○ ○ ○ ○ ○

الله يقتص للضعيف ممن ظلمه

قيل: إن نملة دبت على ذيل ثوب سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام فغضب من ذلك وأخذها وألقاها في الأرض فنادت النملة من شدة الألم وقالت: يا نبي الله ما هذه السطوة؟ أما علمت أني عبدة من أنت عبدهُ أظهرت قوتك على ضعفي وهو مطلع على ما فعلت، وما تخفى عليه خافية فكن على صحة لجواب السؤال عن ظلمك، فقد أهنت جسمي، قيل: فهبط الأمين جبريل عليه السلام وقال: يا نبي الله، إن الله يقرئك السلام ويخصك بالإكرام ويقول لك: وعزتي وجلالي لإن لم تطلب العفو منها لأطالبنك يوم القيامة بها.

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود، قل لبني إسرائيل: من ظلم امرأة أو صبية أو من لا يعقل بحبة من الميزان كويته بمقدارها في النار، وعزتي وجلالي لأوقفنّ الخصمين موضع الخصوم ولأحضرنهم يوم القيامة ولأسألنهم عن الفتيل والنقير والقطمير والأبكم من عمي عن حجته، ما فرّطت في كتابي من شيء ولا فرطت في رسلي، وقد أتت بما أوحي إليها، وأنا الشاهد وكفى بي أعظم الشاهدين.

يقول عمر بن الوردي:

أطل افتكارك في العواقب واجتنب
أشياء محوجة إلى الأعذار

ويقول أسامة بن منقذ:

أيها الظالم مهلاً
أنت بالحاكم غرُّ



كل ما استعذبت من
جورك تعذيب وجمر

ليس تلْقى دعوة المظـ
ـلوم دون اللّه ستر

فخف اللّه فما يخـ
ـفى عليه منه سر

يجمع الظالم والمظـ
ـلوم بعد الموت جسر

حيث لا يمنع سلطا
ن ولا يسمع عذر

أو ما ينهاك عن ظلـ
ـمك موت ثم قبر

○ ○ ○ ○ ○



الفهرس



